الجزء الأول

مجموعة قصصية

أحلام وكوابيس

صالح والحاج سعيد

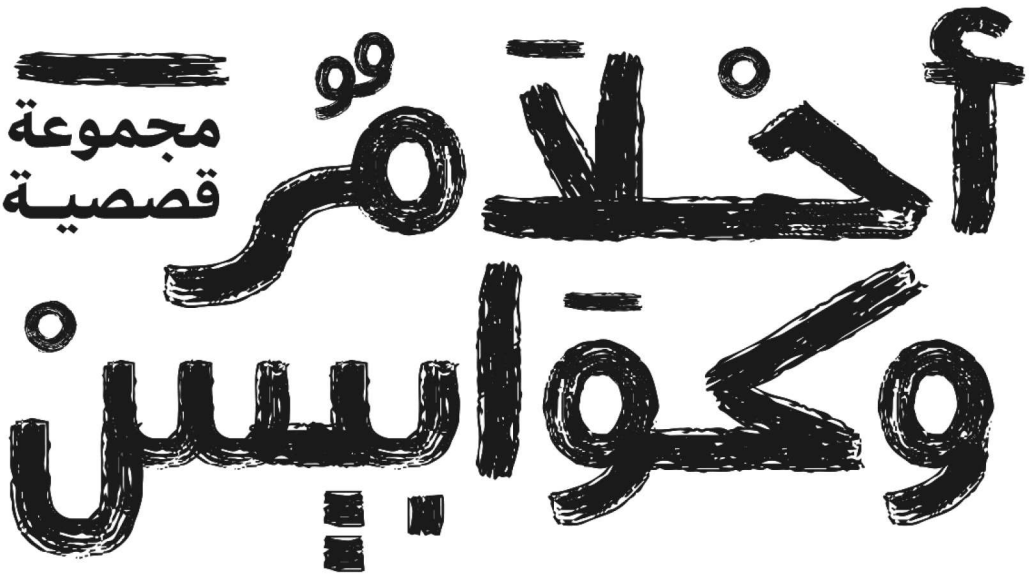

أحلامٌ وكوابيس

مجموعة قصصية

صالح والحاج سعيد

الجزء الأول

أحلام وكوابيس

مقدمة

الحمد لله والثناء على أن سخّر لي أحرف الهجاء، جنودًا لي من الألف إلى الياء، الحمد له على أني أحفظ من المفردات والتعابير الكثير دون عناء، فتقعد جميعها على طرف قلمي مستعدة للإنشاء والبناء.

عليَّ أن أبدأ بهذا، علي أن أبدأ بشكر الله على هبة القريحة والمخيّلة الخصيبة، فآخر مرة اغتررت فيها بنفسي وبقلمي وضعني الله أسفل أحطِّ دركة، عليّ أن أذكر أني لستُ من جعل القلم إصبعي السادس، أني لستُ من خلق لعقلي لسانًا ذوّاقًا أمرِّرُه على الأسطر فيميّز اللغة البليغة الحلوة القويّة من الركيكة المرّة الضعيفة، أني لستُ من خلق العفاريت التي تتلبّسني كلما حملتُ القلم، فتنفث من خلالي سحر البيان على الورق، فأنطلق بسيالتي على مضاميرها وأنا أكاد لا أعي ما أكتبه.

حالة انغماس تامة أقفز فيها لأستحمَّ في حمم بركان متفجِّرٍ من الخواطر والمشاعر، ثم أخرج منها فأجد على الورقة كل ما كنت أفكر فيه مسجّلًا بأبدع أسلوب، وأُذهل من نفسي وأسألها: "هل أنا من كتب هذا؟ لا يمكن، لا يمكن أن أكتب شيئا بهذه العبقرية والجنون والروعة، لا بُدَّ أنه شخص آخر".

نذير: "إنه أنا طبعا".

"ماذا؟! أنت هنا؟!! هيا، اغرب عن ناظري أيها المارد الملعون وعُد إلى قمقمك، فأنت لا تملي علي إلا بالفظائع التي أندم أشد الندم بعد كتابتها".

دعوني أصف لكم ما حدث آخر مرة اغتررتُ فيها بقصة حزينة بديعة كتبتها...

أثِبُ من عِلٍّ على خازوق مشتعل، وأسلخ لهم روحي عليه ليروها، ثم ألتفت إليهم فأجدهم يلتقطون السيلفي، ويتفرجون على الإنستغرام، ويتبادلون النكات والدعابات!

"ما الذي تفعلونه بحق اللعنة؟!" ألوّح لهم بذراعاي اللتان تتدلى منهما متأرجحة -كضفائر الشعر- شرائطُ وقصاصاتُ جلدي المسلوخ، هل أنتم عميان أم مكفوفون؟

لعلي لم أسلخ ما يكفي من جلدي المشوي، لعلي لم أنبش لحمي بما يكفي، لعلهم يشعرون بشيء حين يلمحون عظامي النائحةَ ناتئةً، لعلهم يُحِسُّون بألمي المبرح حين أملأ لهم هاته الدِّلاء بالدماء، دمائي أنا، حتى آخر قطرة منها.

حسنًا، فليكن، إن كان هذا ما يتطلبه الأمر فسأفعله، أحضروا لي منشارًا كهربائيا ومثقابا و...

"هيا، توقف عن سرد قصتك ودعنا نلعب، لقد مللنا".

"إنه محق، الوقت تأخر وقد لا يتسعُ للُّعبة".

ماذا؟ أما سمعتهُ حقًّا ما قالوه؟ كلماتٌ خسفت بكل قصور الأمل التي بنيتها، ونسفت كل الأحلام التي نسجتها، كل ما كنت أتخيّله من باقات الإطراء والإشادة التي سيلقيها الجمهور على قدمي حين أعلن لهم "النّهاية"، كلها ذَرَتْهُ هذه الكلمات وفرّقته وبعثرته وشتّته حتى أضحى كجيشٍ متقهقرٍ يجر أذيال الخزي والهزيمة، كنت أحسب نفسي قد ارتقيتُ إلى القمة فإذا بي أهوي إلى غير قعر.

كلماتهم ذكّرتني بآيات من القرآن الكريم مأخوذة من أوائل سورة الأنبياء: {اقْتَرَبَ لِلنّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مّن ذِكْرٍ مّن رّبّهِمْ مّحْدَثٍ إِلاّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ}.

هذه استجابة الناس لكتاب الله، أفتكون قصتي أفضل منه فأتوقع أن تُقابل بإقبال أكبر؟ وهذا هو الرسول يتلو هذه الآيات البيّنات، أفأكون خيرًا منه لكي أرجو أن يعاملني الناس بأفضل مما عاملوه؟...

لا، لستُ بخيرٍ منه ولا هي كذلك. حسنًا، إذًا فلأصبر ولأتجلّد في وجه هذه اللامبالاة القاسية، ولأقف على ساقاي المنهكتان من كثرة التعثُّر والسّقوط،

ولأمشِ إلى ذاك الجبل، ذاك الطّود العظيم الذي يحول بين كلماتي وقلوب الناس، أضع يدي على قدمه، وأؤخر رأسي للوراء، وأنطحه، قطرات من الدم، ترنُّحٌ ودوخة، لا بأس لم أفقد وعيي بعدُ، أتأخر مجددًا وأنطح بقوة أشد، خذ هذه مني أيها الحاجز اللعين! ينبوعٌ من الدماء.

رأسي المشجوجة تصيح متألمة: "توقف، بالله عليك توقف"، اخرسي أيتها الضعيفة الرقيقة المرهفة الحس، تبكين لوخزة شوكة، خذ هذه أيضا أيها الجدار، شلالٌ من الدماء، هيا، انزحْ، تزعزعْ عن طريقي فأعبُر الجسور إلى أفئدة قرائي وعقولهم، لن أبرحك حتى أبلغ مسعاي، سأُبرِحُك نطحًا، لكمًا، وركلًا حتى تقوم من مجثمك وتتحرك، إن كانت حجارتك قاسية فإصراري أصلد وطموحي شعلة لا ينطفئ لهيبها، وسأظل أنطحك حتى ترضى بأن ينشُر صداك كلماتي إلى الآفاق، أو أفلق رأسي على صخرك وأخِرَّ جثةً أسفلك، لا تداهنِّي، لا تهادنِّي، ولا تساومني فأنا لن أقبل بأقل من حلمي.

ولكن قصتي لقت بضع آذان صاغية من رفاقٍ أوفياء تجاوبوا وتفاعلوا معها فلهم أقول شّكّرًا (بالشّدّة) ولهم أهدي هذه المجموعة:

- إلى لقمان أولاد داود صديق الصبا الذي لم يفارقني حتى اللحظة، أشكرك وأدعو الله أن يجعلك علّامة في الفقه والعقيدة والنحو والبلاغة، ويجعلك من عباده ورجاله الذين يخدمون الأمة وينصرون الدين.

- إلى حمودة كروشي، أشكرك على نقدك البنّاء المفيد، وأسأل الله تعالى أن يوفقك إلى كل ما تسعى إليه.

- إلى كاسي صالح صالح، أشكرك على مديحك وإشادتك بالقصة، وأسأل الله أن يرزقك فرسًا بيضاء مطهّمة، تمتطي صهوتها فتطير بك، وتجعلها ترفع قائميتها الأماميتين ليل نهار حتى تجدها يومًا ما قد أتقنت مشية الإنسان.

- إلى مهدي الدبوز، ماذا أطلب الله أن يهبك؟ ماذا تبتغي من هذه الحياة؟ هيا املأ الفراغ ..... آمين.

والآن بدأت القصة الأولى حين... مهلًا، ماذا؟... لا تقولوا لي أني نسيت شيئًا آخر... اقتربوا قليلا فأذني كذاكرتي عجوزتان توأمتان تتشاركان دكة الخرف على قارعة طريق الشيخوخة... نسيت شخصًا لم أذكره في الإهداء... فتاة؟... أوه، تبًا، كيف نسيتها؟ أحبُّ الناس إلى قلبي...

إلى زوجتي وحبيبتي وخليلتي ومعشوقتي الساحرة الآسرة الفاتنة الأخاذة الجذابة الحسناء اللعوب البارعة الحسن الرائعة الجمال، إلى التي تمسِّد على قريحتي، وتدلِّكُ مخيلتي، وتغمر أناملي بالقبلات حين أنكبُّ على أوراقي أصبُّ عليها الكلمات بأقلامي، إلى التي خلبت لُبِّي وسلبت عقلي وخطفت فؤادي وأبت أن تردّه حتى ولو دفعتْ من أجله قنطار ذهب فدية، إلى حبي الأول والأخير... الكتابة! كتابة الروايات والقصص وما عدا ذلك من صنوف الأدب ما جربته وما لم أذق منه بعدُ.

خيبتُ ظنكم، أليسَ كذلك؟ ظننتم أني سأبوح لكم باسم زميلة كانت تدرس معي في الابتدائية؟ أحقا ظننتموني أقنع وأرضى ببشرية إنسيّة؟ لا، لا، يا رفاق، إما الحور وإلا فالعزوبية، حتى ذاك اللقاء، وإلى ذلك الحين سأبقى وفيّا لزوجتي الجميلة، الكتابة، لكِ أهب هذه التوائم الملائكية السبعة، ويومًا ما، أعدك، سأنسج بكِ أعظم رواية. (إن شاء الله، علي ألّا أنسى ذكر الله).

أحيانًا أرغب في...

مرحبا، أُدعى خالد، وخالد ليس اسمًا على مسمى فأنا إنسان، والناس تموت ولا تخلد، خصالي؟ يصفني أصحابي بالحليم الصبور، فيما يصفني زملائي بالأبله الساذج الذي يسخر منه كل من هبَّ ودبَّ، الناس وصمتني بهذه الصفات، ولكني سأحكي لكم اليوم كيف تغيرتُ...

حين كنت في السنة الثالثة متوسط كنت أرسم، كل أصدقائي كانوا يعرفون ذلك، لم أكن بارعًا كرسامي اللوحات والرسومات ثلاثية الأبعاد، ولكني لم أكن سيئًا بقدر من يرسم الحصان والبقرة والكبش والحمار حيوانًا واحدًا، لا تعرف ماهيته تحديدًا إلا بالآذان الطويلة أو القرون الملتفّة...

أنا متديِّنٌ بالمناسبة، لماذا أقول لكَ هذا؟ لأني كنتُ أرسم شُبَّانًا بقصَّات قزعٍ لم تكن لتخطر على بال الشيطان ذاته لو عمل حلّاقا. كنت أرسم شابًّا قصير اللحية له شعرٌ مصبوغٌ باللون الأحمر أشبه بعُرفِ ديكٍ، ويرتدي قرطين، كنت آنذاك متأثرًا بإحدى الفرق الموسيقية، المهم أني ذات يوم في القسم جلستُ أرسم متفنِّنًا متفانيًا في الرسم، أمحي وأصحح كلما انحرف السطر مليمترًا عن المطلوب، حتى أنهيتُ رسمتي وأريتُها للجالس جواري فخورًا... فجأة اختطفها زميلٌ آخر يُدعى عمر وراح يكلم صاحبه عنها في حماس جذب انتباه الأستاذة فأخذتها منه وقطَّعتها وهي تؤنبني، قلتُ لعمر: ((إنها غلطتك اللعينة، لماذا أخذتها دون إذني؟)).

كان عمر كثير الشجار، لا يعرف كيف يجادل بالكلمات، بل يعرف فقط كيف يسدد اللكمات، فمدَّ يده يصفعني بخفة، صفعة الإهانة تلك التي تُرِيقُ ماء الوجه، وتجرح الكرامة، وتكاد تنطق متحدية: ((أنت لا تستطيع فعل أي شيء)).

ثارت ثائرتي ورددتُ الصفعة بمثلها دون تفكير، ولو كان لي أن أفكر لخطر لي هذا: ((تختطف الورقة التي تفانيتُ في رسمها وتكون سببًا في تمزيقها، ثم وكأن هذا لا يكفي تصفعني أيها الحقير)).

قام عمر من مقعده ووقف أمامي، ويداه مضمومتان على جانبيه إثر صفعتي، ثم أمام أعين جميع رفقائي الطلبة سدّد لكمة قوية دون سابق إنذار مباشرة إلى فمي -شفتي العلوية تحديدًا-، هناك من الناس من قبضته فولاذية ومسنَّنة حتى أنه لو كان فارسًا في أوروبا في القرون الوسطى لما احتاج إلى القفازين الحديديّين، عمر كان من هؤلاء، فأعلى أصابعه حيث العظم الذي يصل اليد بالأصابع، كان مدبَّبًا كالأنياب، كانت قبضة عمر فكَّ قرش حقيقيٍّ، تخيل معي يا صديقي العزيز، تخيل قرشًا يُقَبِّلك، حتى أكثر الرومانسيين خبالًا وجنونًا بليلى أو بغيرها لن يرغب في هذه القبلة، تخيل المشهد معي لحظة:

تلامست الشفاه في رِقَّة، ثم ابتعدتا، مهلًا... الرومانسي هلعٌ يصرخ متألمًا، دعونا نتقدم إليه ونلقي نظرة على السبب الذ... آه، تبا! نصف لسانه مقطوع! أين طارت شفتاه بحق اللعنة؟! انظروا إلى نبع الدماء ذاك الذي يتدفَّق من فمه –أو الثقب الذي كان ثغره بالأحرى– ليسيل شلَّالا على ذقنه فينصبَّ على ثوبه الأبيض، قبلة حمراء حقًا..

حسنا، لنعُد إلى... شعرتُ بمذاق الدَّم على لساني، تبّا للثة التي تنزف بسهولة! شعرتُ بكل قطرة دم تنتقل آنِيًّا من مختلف أطراف جسدي لتحتشد كلها في وجهي، أحسستُ بالدموع تملأ عيناي، تبًا للدموع الخائنة! النساء تخونهن الدموع حين لا تسيل، الرجال تخونهم الدموع حين تنهمر، أنا لا أشعر بالألم أيتها الدموع الحقيرة فارجعي إلى أوكارك عليك اللعنة، في لحظة انفجرت كل هذه الأحاسيس والخواطر في نفسي، وصرختُ في عمر بكل الغضب والغِلِّ الذي أشعر به يغلي داخلي: ((أُخرج لي بعد أن ينتهي الدّوام وسأريك)).

وفقط في هذه اللحظة قررت الأستاذة البدينة التي كانت تخطُّ شيئًا ما على السبورة منشغِلة عن اللكمة والصفعتين أن تلتفتَ لترى من يُحدِثُ الفوضى، رأتني دامع العينين، ولم تقل شيئًا، عودي إلى نومك ولا تستيقظي أبدًا أيتها الأستاذة المأفونة، فلولا التفاتك الآن لثأرتُ لنفسي ورددتُ له اللكمة، بعد أربع ساعات من الانتظار قضيتها في الاستماع إلى الزملاء الذين راحوا يقولون مندهشين: ((أحقًّا ستفعلها؟ أحقًّا ستضربه؟))، يسألون هذا لأن ذلك الوغد

قويٌ رغم نحوله، وهو معروفٌ بمعاركه الدامية التي يخرج منها منتصرًا في كل مرة كأنه خالد بن الوليد الذي لم ينهزم أبدًا، يسألون هذا لأني في المقابل "غاندي" المدرسة، معروفٌ بسِلمِيَّتي فأنا أقرب إلى جرو "بودل" لطيف بريء في وجار كلاب بيتبول هائجة، والحقُّ أني لا أجد دافعًا إلى العراك والشجار إلا سب والديَّ أو التهجُّم علي، وأتحمل كل ما دون هذا من الألقاب الهازئة والسخرية والمقالب بحِلم وصبر، فهو كما ترون محنّكٌ وأنا ساذجٌ لا خبرة لي، وهو ذو القبضات الحديدية، وأنا ذو العضلات الهزيلة، على من ستراهنون؟... عليَّ؟! أأنتم مجانين؟! حتى أنا سأراهن ضد نفسي...

لم يكن هدفي من الشجار الانتصار بأي حال، بل كان هدفي أن أؤذيه وأضُرَّه حتى لو كانت إصابته أقلّ وإصاباتي أبلغ، كانت نيتي أن أقاوم وأبيِّنَ له أني لستُ حمارًا يُجلدُ فينهق ويتابع سيره، وحين خرجنا وقفت أنتظره، فقط ليأتيني زميل يسمى حميد، هذا الزميل هو أكثر التلاميذ الذين درستُ معهم جنونًا، فهو لا يحترم نفسه ولا غيره، ولا يهتم بنظرة الناس إليه، فقد كان في القسم يبصق ويتنخَّم ويتجشَّؤ بصوت عال ويفعل ما هو أسوأ، وكل هذا جهارًا وعلانية، هذا الزميل وقف بيني وبين عدوي وراح يمثِّل دور المصلح، ويقول لنا : ((تسامحوا فأنتم إخوة في الله، تصالحوا ولا تسمحوا للشيطان أن يوقع بينكما... إلخ)).

وأنا أرى خصمي هناك على بُعدِ ذراعين مني، ولا أستطيع أن أنال منه، أنا لي خصلة سيئة وهي أني دائما في القتال أنتظر من خصمي أن يلكم أولا، وعمر اللعين وضع يديه وراء ظهره، ووقف ينصت للنصيحة ويتفرّج مسترخيًا، لأنه قد سدّد لكمته الأولى بالفعل، سدّدها في القسم، وقد شبع واكتفى، أخيرا تدخَّل قائلًا حين أنهى حميد موعظته فوجد مني صمتًا وسكوتًا لا يدلُّ على الرضا : ((دعك، دعك منه، إنه مغتاظ حزين)).

ماذا قال؟! ماذا قال؟!! أجبته والغيظ يكاد يشويني: ((دعني أحطم فكَّكَ بلكمتي، ولنر إن كنت ستظل هادئًا رزينًا بعدها)).
تلت عبارتي هذه لحظة صمت، صمت مشحون بالتوتر كما لو كان هو أمريكا

وكنتُ روسيا خلال الحرب الباردة، الكل يترقّب، يترقب ماذا؟ يترقّب لكمتي النووية... قال حميد أخيرا حين أدرك أني لن أفعل شيئًا: ((هيا اصفحا وتصافحا))، هذه العبارة ابتكرتها أنا للتو، يا له من جناس بديع، ألستُ بنابغة؟... قال حميد شيئًا بهذا المعنى، ولكن ليس بهذه البلاغة، فمددتُ يدي و... صافحته مصافحة قصيرة خفيفة كادت يدانا ألّا تتلامسا خلالها، ومشيتُ مباشرة بعدها مبتعدًا عن كليهما، وأنا أحاول أن أكظم كل ذاك الغيظ الذي تجمّع في حلقي، دائما حين أغضب أشعر بذاك المذاق المرّ الحارق في حلقي، فأبتلعه وأتجرّعه بعسر، أتعرف صعوبة كظم الغيظ؟ إنها مثل محاولة إيقاف بركان عن الانفجار، في طريقي إلى منزلي فكَّرتُ في مدى سخافة حميد؟ حميد ذاته لو كانت لديه مشكلة مع عمر لأبى أن يتصالح أو يتسامح، ثم أدركتُ فجأة مدى عطف حميد، فهو لا بُدَّ يعرف أن زميلي عمر سيمسح بي الأرض، كل زملائي عرفوا هذا وتركوني أواجهه دون تدخُّل، إلا حميد فهو الوحيد الذي أشفق عليَّ من الهزيمة فأنقذني.

كنتُ أحيانا أتخيّل نفسي أتشاجر مع عمر، كل شيء يجري بيُسْرٍ في الخيال، كل لكمة تضرب الموضع المستهدف، كل ركلة تُسَبِّبُ التأثير المطلوب، الخصم لا يرُدُّ ولا يتفادى بل يقف هناك كالصنم فيما أهوي أنا عليه محطمًا كإبراهيم عليه السلام، ولكن الواقع شيء آخر، القوي يتنمر والضعيف يقاوم فينهزم، هذه هي الحياة، ولكن القوي ليس الأقوى، ولا بُدَّ أن أحدًا سيفعل بعمرٍ ما فعله بي، ولسوف يذيقه طعم الخزي، لن أكون هناك لأشهد هذا، ولكني واثقٌ من عدل الإله، وربي سيتكفَّلُ به.

وصلتُ إلى منزلي، وأنا ما زلت أتصوّر تنويعات لمقتل عمر، أحيانا أراني قد رجعتُ إلى عصر الثورة الفرنسية، في عهد "الهلع" حين كانوا يعدمون النبلاء ممن يشتبهون في كونهم أعداء للثورة، أراني على صورة جلّاد بدين لا يمنعه عمله المقيت من الاستمتاع بطعم طعامه وملء بطنه بالأطايب؛ جلّادٍ يمسك بحبل المقصلة بيد مرتخية، وأمامي رأس عمر عالقة بين اللوحين الخشبيين، أنظر إلى محيّاه فأرى الرعب يلثِّمه، الهلع يقطر دموعا من عينيه، ويخرج صياحا من شفتيه، فأشعر بنشوة الانتقام وأنا أفلت الحبل متثائبًا باليد الأخرى، ليسقط رأسه المقطوع في

السلّة كثمرة مقطوفة، أحدِّق في عينيه اللتان تنظران إلي بلوم ثم أبصق عليهما، وأنحني بعدها للجمهور الذي يغرقني بهتافاته الصاخبة وتصفيقاته الحارّة، أقول لنفسي مؤنِّبًا: ((أيها السادِيُّ اللعين، تحكم في غيظك))، وأغيِّر قناة "مشاهد الإعدام" إلى قناة أكثر لطفًا وأقل عنفًا، قناة "المصارعة الحرة"...

أَبْرُزُ له من تحت الحلبة كأندرتيكر (Undertaker)، ثم أُسقطه أرضًا، وأضع قدمي على جسده، وأحرِّك رأسي للوراء كي أزيح خصلات الشعر الطويلة المنسدلة عن عينيَّ، وأرفع حدقتيَّ إلى أعلى حتى تبدو عيناي بيضاوين كصفحتين من دفترِ كاتبٍ مصاب بجفاف القريحة، ثم أمدُّ لساني خارجا وأدلّيه أسفل ذقني ليبدو كلسان "فينوم" عدو سبايدرمان، وأمرِّر إبهامي تحت ذقني منبئا الجماهير المتحمسة بأن الذبح سيبدأ.

أرفع عمر المغمى عليه من الأرض، فيفيق ويحاول المقاومة، ولكني أسبقه بقلبه رأسا على عقب، وأمسكه من ساقيه كما لو أني أمٌّ على وشك نفض ابنها لإخراج الكُريّة العالقة في حلقه، أمسكه حتى ترتفع رأسه عن الأرض ثم أهوي به لأحطم عنقه على الأرضية، أجلس إلى جواره وأرفع قدمه مثبِّتًا إياه أرضا، فيما الحَكَمُ إلى جواري يضرب الأرض بكفِّه حاسبا أنفاسه الأخيرة... واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة... خمسة... لقد فاضت روحه أخيرا، الفائز بقتال الموت هذا، البطل الصنديد المغوار الذي لا يقهر، الظَّفرُ لصيق به كما الظُّفر لصيق بإصبعه، حامل حزمة الأحزمة "خاااااااليييييييييد". ثم يرفع ذراعي عاليا، فيما يتصل المشرفون على النزال بالحانوتيِّ ليجهّز لخصمي تابوته... مهلا، أليس هذا نوعا آخر من الإعدام؟ الموت لا ينفكُّ يحشر أنفه القبيح في كل أخيِلتي.

مهلا... هل انتهت القصة؟ أين التغيُّر الذي وعدتنا به؟ صبرا يا هذا، فأنا لم أفرغ بعدُ....

بعد أربع سنوات، ها أنا ذا أصارع "تشاك نوريس"، شبيهه بالأحرى، هذا الشاب المفتول العضلات، أشقر الشعر، أخضر العينين، فارس أحلام العذروات التقليدي، أستطيع تصورهن يجرين لاهثات خلف فرسه البيضاء. وأنا خصمه أقف أمامه،

أشعث الشعر، أشقر الأسنان، غليظ الشفتين، هيكلٌ عظمي مُغلّفٌ بالجلد، أعسرٌ أعرجٌ شاء نحسه أو غباءه أن يسقط على ساقه اليسرى، غولُ كوابيسِ العنساوات التقليدي، كلهن يخشين ألّا يبقى سواي عريسًا لهن، ولكن لا خوف عليهن فأنا لن أتزوجهن حتى لو غلّقن علي الأبواب وراودنني عن نفسي كامرأة العزيز، سأثب فارّا من النافذة حتى لو عنى ذاك كسر ساقي الثانية...

أصارع تشاك نوريس ولكني لستُ بروس لي، والآن على من ستراهن؟ عليه؟ أحسنت بتعلم درسك، هاك حفنة الدنانير القليلة هذه وَضَعْها ضدي أيضا، فأنا متيقن من خسارتي، ولكني أقف هناك لا مباليا، لأن كل ما أريده هو أن ألكمه وأُشعِرَهُ بألمي، وإن لم أستطع تهشيم أضلعه وإعادة ترتيب أعضاءه الداخلية كما فعل هو معي، المهم عندي ألّا أسكت عليه، ألّا أتركه يركلني ككلب سلوقي دون أن أنهش وجهه في المقابل، أجل، لقد انتصر علي، ولكني كِلتُ له بضع لكمات قوية، وهذا أرضاني. هاك رهانك بالمناسبة، كما سلّمته تماما لم ينقص... ولم يزدد أيضا لأن أحدا لم يراهن علي.

القمار حرام!.. أعرف يا شيخ، ولكن هذا محض خيال.

أنا مسلم

كان علي في منزله يشاهد مباراة كرة قدم، ويصرخ بحماس كلما اقترب لاعبو الفريق الذي يشجّعه من مرمى الخصم: ((هيا، تقدموا، سدّدوا الكرة وسجلوا الهدف))، يهتف بأعلى صوته كالقعقاع في المعارك ينادي "الله أكبر"، يصرخ كما لو أن حياته ذاتها معلّقة بذلك الهدف، فإن سجّل اللاعب رفع عقيرته بالصياح أن مرحى، وإن ضيّع لعنه وشتمه: ((المعاق الأخرق الأعرج الأعمى)).

كان يصرخ أيضا ولكن بهلع حين يدنو الفريق الخصم من شباك فريقه: ((لا، لاااااا، انزعوها منه، انتزعوها بسرعة))، حتى تظن أنه يشاهد بثًا مباشرًا لإرهابي يحمل قنبلة موقوتة مهددًا بتفجير مسجد، أجل، مسجد، ما بالك مستغرب؟ ليس كل الإرهاب مسلمين كما يريدك الإعلام أن تصدِّق.

فإن سجّلوا أطلق لسانه بأقذع السباب والشتائم، لاعنًا الدين والرب، دين ورب من؟ رب اللاعبين المهاجمين ودينهم، وهو نفس الدين الذي يعتنقه. يلعنه علي وقد احمرّ وجهه غضبًا، وبرزت أوداجه غيظًا، وراح يزفر ضيقًا.

لو كان لعلي بصرٌ حديدٌ لرأى إبليس راقصًا حوله هو وخمسة من ذُرِّيته، وهو يضرب الدُّف، وينفخ على المزمار في زهو وسرور، فيما أبناءه يطبِّلون ويعزفون ويصفِّرون، وبينما هم يفعلون يهتف إبليس بحماس مشوب بالفرحة : ((أجل، العن ربك، افعلها لتكون رفيقًا آخر يؤنس وحدتي في الجحيم، سنتقاسم أكل الزقوم والضريع معا، وسيكون لك مشرب من الحميم المقطع للأمعاء إلى جواري))، ولكن بصر علي عاجز عن إدراكهم.

يؤذِّن لصلاة المغرب فيسمعه بالكاد، يقول لنفسه: ((سأصلي فيما بعدُ، المباراة تكاد تنتهي)).
يُشِيدُ بقراره الشيطان: ((بوركت يا فتى، هكذا، الصلاة لغير وقتها، هذا والأحسن ألّا تُصلِّيها أبدًا، ولكني سأقنع بالتأخير لليوم)).

تنتهي المباراة بخسارة فريقه فيصيبه غمٌ وهمٌ شديدٌ، ويذهب للصلاة وقلبه يحترق حزنًا، يُصلي وهو لا يدرك ما يقول فتركيزه كله مُنصبٌ على أخطاء الفريق التي أدّت إلى خسارته، فجأة يدرك أنه جالس في التحيات الأخيرة، فيسأل نفسه: ((هل سلّمتُ بعدُ أم لم أسلِّم؟ يا إلهي، لقد نسيتُ تماما)).
والشيطان مستلقٍ على طرف سجّادته يمسك بطنه ضاحكا ملء فيه: ((لم يخشع ولا لحظة واحدة، هذا هو رقمي القياسي الجديد، أريد حقا أن أُنصت إلى هذه الصلاة حين تصعدُ إلى السماء فتمطره باللعنات، مهلا... إنه يدعو، استمعوا له يا أطفالي... إنه يقول: 'رب تقبّل هذه الصلاة'، هاهاها، صلاة بمثل هذا السوء وما زال يرجو القبول، إنه حقًا أحمق، إنه يدعو ويحمد ويسبِّح الآن، ذكِّروني ماذا كان يفعل قبل ربع ساعة.... كان يلعن ربه ويسُبُّه، هاهاها، الغبي الأبله، كيف لا يدرك أنه يعيش في تناقض؟ حتى التناقض ذاته لو كان له عينان لاتسعتا صدمة وذهولًا، ولو كان له حاجبان لارتفعا استغرابًا وتعجُّبًا، ولو كان له فم لفغره على اتساعه دهشة وحيرة)).

يربّتُ الشيطان على قرون أطفاله ويقول: ((انظروا معي يا أبنائي، تخيّلوا رجلًا يبصق في وجه أمِّه وأبيه الكبيرين ثم يعود بعد نصف ساعة ويقبِّل جبينهما، ثم يبصق في وجهيهما مجددًا ويغادر، ويقول لأبيه فيما بعد: 'أبي، عهدتك كريمًا وطيبًا معي دائمًا، وفضلك عليّ لا يُنكر، وأنا في حاجة لبعض المال فهل لك أن تعيرني كي أشتري كذا وكذا؟'، تخيّل ماذا ستكون ردّة أبيه، سيلعنه ويتبرّأ منه ويصرخ فيه: 'أيها الوغد الوقح، تبصق في وجهي ثم تأتيني الآن متزلفًا متسولًا مني النقود، اغرب عن وجهي أيها العاق'.

والآن تخيّل معي لو كان أبوه هذا في الأربعين، وابنه الذي يفعل به هذا في المراهقة، ماذا سيفعله به؟ سينهال عليه ضربا بالعصا حتى يكسرها على ظهره، هذا هو حال علي هذا مع ربه، الفرق أن ربّه أقوى من الأب بما لا يقاس ولكنه يمهل ويؤجِّل العقاب. مهمتنا يا أبنائي الأحباء أن نجعله يكرر هذا السيناريو يوميًا إلى حين وفاته، وبهذا نضمن أن يكون من أصحاب النار)).

يقوم علي ليسمع رنين هاتفه، يحمله فيجد أن صاحبه يتّصل به، يردُّ عليه فإذا بصديقه يقول ضاحكًا : ((لقد خسروا، فريقك خسر، وفريقي فاز، فريقك ليس إلا حفنة من المعاقين الضعفاء)).
يصرخ فيه علي لاعنًا دينه وربه، فيقهقه الآخر ويغلق الخط، يلقي علي الهاتف، ويطوي السجادة، وينتظر قليلا ريثما يؤذِّن، وحين يرتفع الأذان يقوم فيصلي العشاء، ويتعشّى ثم يستلقي على سريره ويتصفح الأنترنت، في البداية تمرُّ به بضع إعلانات لأوجه حسناوات مليحات، فيبحث عن المزيد من هذه الصور فتستيقظ الشهوة داخله متثائبة، ثم ينتقل من الأوجه السافرة إلى الأجساد الكاسية فتزداد شهوته اشتعالًا ورغبته تأجُّجًا، فيترك الأجساد الكاسية ويذهب إلى الأجسام شبه العارية، ولكن هذا لا يثيره بما يكفي ولا يرضيه فيقتحم موقعًا إباحيًا، ويتفرّج على الناس إذ يقترفون الزنا، ويُشبِعون شهواتهم الحيوانية بالطرق غير الشرعية.

صناعة البورنو أسوأ وأقبح من الدعارة والبغاء، فالدعارة تتمُّ خفية في السِّر على الأقل، أما هؤلاء الممثلون والممثلات فهم داعرون وعهرة يزنون علنًا وجهرة، يحبُّون أن تشيع الفاحشة لأنهم رضوا بفعلها أمام الكاميرا ليراهم العالم أجمع، وليذهب الحياء مع الحشمة إلى حيث ألقت.

خنازير بشرية تتضاجع وسط بركة من الوحل والقذارة مختلطة ببولها وفضلاتها، هذا ما أصبحوا عليه، وهذا ما راح علي يتفرّج عليه طيلة ساعتين بعد منتصف الليل، غير عارفٍ أنه يدفع أجرة تلك اللذة البصرية عبر مشاهدته، فهو يملأ جيوب تلك العاهرات الزانيات بالدولارات لقاء كل ساعة يشاهدها، فهو إذًا يساهم في تمويل العهر عن غير علم، أخيرًا يُشبع علي شهوته المتأججة فيخلد للنوم ويرى...

يرى علي في الحلم رجلا يأتيه ويسأله: ((على أيِّ دين أنت؟)).
فيجيبه علي ببساطة وثقة: ((أنا مسلم)).
يسأل الرجل مندهشًا متعجبًا: ((أتؤمن بالله ربًا وبمحمد رسولًا وبـ...)).
يقاطعه علي في نفاذ صبر: ((أجل، أجل، أؤمن بالله إلهي، ومحمد رسولي إلى آخر ذلك الهراء، والآن ابتعد، فأنت تحجب الحور العين)).

تعلو الرجل الحيرة ويلتفت خلف ظهره ليرى ما يقصده: ((أتقصد صور نجمات الإباحية التي احتفظ بها عقلك؟)).

- ((أجل، أيًا كُنّ، هيا، اغرب عن وجهي حتى أمعن التحديق في تلك ال...)).
يقاطعه الرجل سائلًا مجددًا : ((أأنت حقا مسلم؟)).

- ((أجبتك بالفعل أيها الغبي)).

- ((إذًا، كيف تفسر تصرفاتك المنافية لأخلاق الإسلام؟)).

- ((أنا ما زلت شابا، حين أتزوج سأُقلع وحين أشيخ سأتوب، الله واسع المغفرة، ما الضرر في بضع نظرات؟ هناك من الناس من يزني ويغتصب، فأنا بالمقارنة بهم في قمة الورع والتقوى، لا أفعل شيئًا سوى النظر البريء إلى صور متحركة على الأنترنت رضى بنشرها أصحابها)).

- ((أتعرف ما معنى قوله تعالى: 'زيّن لهم الشيطان أعمالهم'؟)).

- ((كل الناس يفعلون هذا في السر ولا يعترفون، لقد سمعتُ عن أئمة يسكرون ويعربدون، لقد بلغتني شائعات عن مشائخ يقعون في أحابيل الهوى والغرام، إذا كان من يُفترض بهم أن يكونوا القدوة الحسنة يفعلون هذا فكيف أُلام أنا على صغائر الذنوب؟ النفاق والفسوق هو سلعة العصر الرائجة)).

- ((بما أن الكل فاسد، فأنا معذور، أهذه حجتك؟ إذًا، أيعني هذا أنه لو سافرت غدًا إلى إنجلترا أو فرنسا، ووجدت الناس يشربون الكحول، ويتبادلون االقُبلات مع خليلاتهم في الشوارع، ويرقصون عراة في الملاهي الليلية، فستفعل المثل لأن الجميع يفعلونها، أتعني أنه لو استيقظت غدا، ووجدت الناس أفواجًا وجماعات يكفرون ويلحدون، ويدنّسون المساجد، ويرمون بالمصاحف في حاويات القمامة، فسترتدُّ عن دينك وتنضمُّ لهم بكل سرور؟)).

يصمت علي، وتتلاشى ممثلات الإباحية من الخلفية، وتسود الظلمة الحالكة، فيودِّعه الواعظ ثم يخطو مبتعدًا ليلقي الظلام رداءه على كتفيه فيواريه.

يستيقظ علي والشمس قد أشرقت وسطعت، والديك قد صاح حتى بحّ صوته، والباعة قد أخذوا يفتحون متاجرهم ومحالّهم وينادون على بضاعتهم، لقد أضاع صلاة الصبح، يقوم ويحكُّ عينيه متثائبًا، لقد رأى حلمًا غريبًا، ولكنه لا يذكر تفاصيله تحديدًا، رجلٌ ملتحٍ ينصحه ويعظه بشيء لا يتذكره، وفيما هو يفرك عينيه لا يرى علي الشياطين الصغيرة التي تزاحمت على كتفيه ووقفت عليهما لتصوِّب بولها نحو أذنيه وهي تضحك هازئة.

يقوم من فراشه ويذهب ليغتسل، ثم يستنجي ويتوضأ، يتذكر ما شاهده في الليل فيقول في نفسه بلهجة لا تحمل من الندم إلّا أقلّه: ((ربي سيغفر لي))، ثم يصلي على عجل، ويطوي سجّادته، ويهرع بالخروج ليلحق بعمله.

يعمل علي بائعًا في متجر لبيع الهواتف، وهو ليس مالك المحل طبعا، فهو ما زال في مقتبل الشباب، ولم يجمع بعدُ رأس مال يكفيه للانطلاق في مشاريعه الخاصة، ولكن اليوم خطرت له فكرة: لماذا لا يقترض من البنك ثم يسدِّدُ دينه بعد أن يحقق الربح المرجو؟ إن فكرته مضمونة، محلٌّ لبيع الحلويات من زلابية وقلب لوز وأصبع عروس وغيرها، ماذا عن الربا؟... لن يكون على ديْنه فائدة إلا بعد مرور عام، وهو سيحقق أموالا طائلة قبل ذلك، سيتهاطل الزبائن عليه كالمطر في غابة الأمازون، وسيردُّ دينه في أقل من شهر، إنه من ذلك موقن وواث...

بعد يوم سُرق المبلغ الذي استدانه، يا للمصيبة! ما الذي فعلته بحق اللعنة حتى أستحق هذا؟ أيُّ لصٍّ لعين ابن كلبة هذا الذي سرقه؟ تبًّا له، عليه اللعنة، يا رب اقطع عنقه في حادث مرور، يا رب أصبه بالسرطان، يا رب أحرق بيته وألهبه وهو داخله، أتمنى لو أُمسكه يوما فأدوس على رقبته حتى يموت، ماذا سأفعل الآن؟ ماذا سأفعل؟

كيف سأردُّ الدين الذي سيكون عبئًا على عاتقي يزداد ثقلًا كل عام، كما لو أني قُضِيَ علَيَّ بحمل فيلٍ صغيرٍ -ولكنه يكبر رويدًا رويدًا- طيلة عمري.

يزوره الواعظ تلك الليلة، ويسأله: ((أأنت مسلم؟)).

فيقذفه بأقبح الشتائم وأقذع السِّباب. ولكن الواعظ لا ينفَكُّ يسأله دون أن يبدو على وجهه أيُّ تأثر، أخيرًا يجيبه بضجر ليصرفه: ((أجل، أنا مسلم، ما خطبك تكرر علي هذا السؤال الغبي أيها المعتوه؟ لقد فقدتُ للتو كل ما اقترضته من مال، دون أن أستثمر حتى درهم منه، كيف سأردُّ ذلك المبلغ الكبير؟ لقد تدمّرت حياتي تماما، وأضْحَتْ مثل قرية أغار عليها الناهبون، فقدتُ كل أمل لي في العيش الرغد، وأنت تسألني هذا السؤال السخيف؟)).

يسأله الواعظ بذات النظرة، وذات التعبير المنحوت على وجهه، والذي لا ينمُّ عن أي شعور: ((إذا كنت مسلمًا فلماذا أخذت قرضًا ربويًا؟)).

يثير عتاب الرجل الملتحي ثائرته ويفقده صوابه، فيصرخ فيه بصوت توشك أن تتقطَّع له حباله الصوتية: ((أيها الأحمق الأبله، ألا تتفهم وضعي؟ إنه السبيل الوحيد لأنجو في هذا البلد اللعين، الأسعار في غلاء متزايد، والإيجار تكاد ميزانيتي لا تكفي لدفعه، علاوة على فواتير الماء والكهرباء والأنترنت، إضافة إلى وقود الدراجة النارية، أجرة العمل لا تكفي أبدًا لكل هذه المصاريف والنفقات، سأظل أعمل حتى الهرم كي أجمع مالا يكفي لشراء منزل، سأظل أعمل حتى ينحني ظهري وتعجز ساقاي عن حملي، متى سأتزوج وأستقِرُّ وأنجب؟ ومتى سأستمتع بحياتي وآخذ شيئًا من الراحة المستحقة؟ علي أن أستدين وأستثمر، والناس لن يقرضوني لأن أغلبهم عالق معي في نفس المأزق، أما الأقلية من الأغنياء والأثرياء فنصفهم بخلاء لا يبالون بفقري، ونصفهم لا يثقون في، ولذا وجب علي التوجه إلى البنوك، وهي لا تُقَدِّم إلا القروض الربوية، الدولة كلها فاسدة، وليس بيدي أو بيد غيري حيلة سوى الاستسلام والانضمام إلى المفسدين)).

يقول الرجل: ((أما كان خيرًا لك أن تصبر وتتحمّل ريثما يفرِّج الله عنك ويفتح عليك)).

- ((أيها الساذج، أنت لا تعرف كيف تسير الأمور في الدنيا، الفاسدون المرتشون الرَّابون المخادعون المتحايلون وبائعو المخدرات هم من يرتقون إلى الأعالي، أما التقاة الصالحون المتصدقون فلا يوجد من هو أفقر منهم، ستشمت بي الآن

وتقول لي انظر إلى أين أوصلك الربا ولكني غدًا سأخلِّص نفسي من المشكل فقد وجدت الحل)).

الرشوة هي مفتاح الفرج، يقول علي في سره، وهو يخرج من دار المصرفي الذي شرب عنده القهوة، وتعاقد معه بين رشفة وأخرى على أن يتغافل عن دينه لفترة ولا يرفع الفائدة، ريثما يجمع هو مالًا يكفي للسداد، يسيل لعاب المصرفي ويوافق حالما يرى بضعة أوراق خضراء من فئة المئتي ألف، قطرة عرق واحدة لن تسيل منه لقاء هذه الأجرة، كل ما عليه هو أن يغمض عينا وكفى.

يعود علي لشِقّته وهو يحاول أن يتذكر كلمة مما قاله له الواعظ الملتحي في الحلم، فلا تُسعفه الذاكرة، يشغل هاتفه ويشاهد الأخبار، الجنود الإسرائيليون يلقون قنابلًا على المدن الفلسطينية لقمع المقاومة، وقد سقط من الضحايا جراء تلك التفجيرات عشرات الأطفال والنساء، من بينهن حوامل، يقول في سره: ((الخبر المكرر المعتاد، لقد سمعه لحد الملل حتى بدأ يشكُّ في أنهم يعيدون بث الأخبار القديمة نفسها))، يغيِّر الفيديو ويفتِّش عن شيء يضحكه ويُسلّيه، ويضيع ساعة في القهقهة.

يقوم من سريره ويصلي الظهر، يدعو على سارقه بكل شر يمكن تصوره، ثم يخلدُ للنوم، يسأله الرجل الملتحي: ((أأنت مسلم؟)).

تبا لهذا، حتى الأحلام مكررة، يقول له: ((لقد بدأت أفكر في الانتحار بسببك، أأنت أصمٌّ أم مخبول، كيف أجعلك تستوعبها؟ أجل، أجل، عليك اللعنة، أنا مسلم، أعلي أن أنطقها حرفا حرفا حتى تعيها، م- س-ل-م)).

يقول له الواعظ: ((ولكنك تتعامل بالرشوة والربا ولا تغضب أو تحزن لموت إخوانك)).

- ((إخواني؟ إنهم فلسطينيون، إنهم ليسوا حتى بأقاربي البعيدين، لا شأن لي بهم، وإن حكمنا بالعدل فالأرض لليهود أصلًا، وقد سلبها صلاح الدين الأيوبي منهم، أنا أحاول أن أعيش حياتي كما قلتُ آنفا، أحاول أن أنقذ نفسي من وضعي المزري، ولا وقت لدي كي أساعد أحدًا آخر غيري)).

- ((ما الذي تريد أن يفعله؟))، يقول رجل خلفه بصوت كالفحيح، ثم يدسُّ في فمه سيجارًا ضخما، ويسحب منه نفسًا عميقًا، قبل أن يلتفت إلى الواعظ وينفث في وجهه دخانا كثيفًا خانقًا كما لو أن فمه عادم سيارة.

من أين جاء هذا؟ يتساءل علي سِرّا وهو يتأمله في انبهار، يرمق أذنيه اللتين يتدلّى منهما قرطان ثقيلان، وعينيه مشقوقتي الحاجبين، وعُرفَ الديك الذي كلّل رأسه، وذقنه الحليقة اللّامعة، وقميصه وسرواله الحريريين الباهظين، وخواتم الذّهب الخالص على أصابعه، وقلائد الألماس البرّاق حول عنقه، هذا هو الثراء الفاحش وقد تجسّد رجلًا، يضع الرجل ذراعًا على كتف علي ويضمُّه إليه كأنه يقيه من الواعظ، ثم يواصل حديثه: ((أتطلب منه أن يستلَّ سيفه ويذهب للجهاد، هاها، إنك تعيش في الماضي الغابر أيها الشيخ، أفق للواقع، عصر الفتوحات انقضى، عصر 'أسلم تسلم' و'الله أكبر' و'إما النصر وإما الشهادة' مضى، لقد انهزمتم، خسر المسلمون وتشتتوا، ثم انسلخوا عن دينهم حين أدركوا أن الشريعة قد ولّى زمانها، فلا وجود للحدود الآن، ولا للبراءة ولا الولاية ولا النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، كل هذا اندثر وانقرض ككل تقاليد الحضارات البائدة، نحن الآن في عصر الانفتاح والتساهل، نقلِّدُ الرجل الغربي في لباسه وفكره، وهو شيء منطقيٌ، فأنت تُقلِّد الناجح لتنجح، انظر حولك أيها المتزمِّتُ المحافظ لتدرك أن زمانك ولّى، هل ترى أيّة خلافة إسلامية؟ أم أنك تنظر فترى الديموقراطيات والممالك؟ هل ترى أيّ اتحاد واعتصام بحبل الله؟ أم أنك تنظر فترى خلافات مذهبية وصراعات سياسية، هل ترى أيّة فتيات متحجّبات محتشمات يمشين على استحياء؟ أم أنك تنظر فترى الفتاة المسلمة لا يميزها عن الفتاة الغربية شيء، ذاتُ سروال الجينز الضيق، ذات الشعر السافر المسترسل، ذات قناع الماكياج، ذات القميص الكاشف، بل ذات الوشم أحيانا، تعال معي إلى الشاطئ يوما أيها الواعظ المتزمت المتعنت، ولتستغرق في النظر معي إلى العورات إذ تتكشّف وتتبدّى وتتبّعها ببصرك، لا أحد يعترض، لا أحد يشتكي، كل المتدينين وأئمة المساجد بلحاهم الطويلة يرون، ويطبقون أفواههم رغم أنوفهم، أتظن أن المستعمر غادر أيها الأبله، أتظنه انهزم؟ لقد ترك في المسلمين بصمته، بل لقد

وسمهم كما توسم البقر، كلا، هذا التعبير ألطف مما يجب ولا يفي بالغرض، ها هي الاستعارة المثالية: لقد اغتصب المحتل هذه الأرض لفترة طويلة فأنجبت له لقيطًا يماثله في الصورة، وكل ما عليهم الآن هو الاستسلام لأثره، المسلمون منحطُّون الآن ولا سبيل للرقي إلا بالاقتداء بالدول المتقدمة المتطورة في نهجها واتباع أسلوبها في العيش، هيا، قلها معنا يا شيخ، وردد وراءنا، أنا مسلم، آمنت بالله ربًا، وبمحمد رسولًا...إلخ)).

ينهي الرجل خطبته ويناول عليًا سيجاره: ((هاك، خذ نفسًا من هذا الحشيش، ولا تأبه لهذا المتخلِّف المتعنت الذي لا يعرف كيف يستمتع بحياته، قل لي يا علي، ألستُ محقا بكل شيء قلته؟)).

يقول علي وهو يلتقط السيجار: ((أجل، أجل، الحق معك، ولكن مهلًا... أقلتَ أن الاستعمار هو السبب في انحرافنا عن الدين)).

- ((أجل، هو ذاك، وقد أسدى لكم معروفًا بأثره هذا، فما الدين إلا قيود وأغلال تكبِّلك، ولا تسمح لك الانغماس في أي شهوة ممتعة تجلب النشوة، ألستُ محقا؟)).

- ((إنك حقا تصرِّح بأفكاري اليومية، وتعبر عما أستحي عن قوله خشية لوم الناس)).

وينظر علي للواعظ فيُصدم برؤية تغيير تطرأ على ملامحه الجامدة، ويا له من تغيُّر، لقد انقلب وجهًا اجتمع فيه كل ما في العالم من حنق وغيظ وازدراء، أمسك الواعظ عليّا من تلابيبه، ورفعه فيما أطلق الرجل إلى جواره ضحكة هازئة، وتبخّر تاركًا إياه لوحده.

قال له الواعظ الكلمات بلهجة الزبانية إذ يوبخون الكفار في الجحيم: ((أنت لست بمسلم حقًا، أنت خائن لوطنك، متجرد من مبادئك وقيمك، ناكر لما ضحّى به أجدادك المجاهدون، الذين سقوا الأرض وروووها بدمائهم الزكية الطاهرة لتأتي أنت فتمشي عليها مسخًا يجمع بين القرد والببغاء، تقلّد كل ما يفعله قَتَلَتُهم، وتردد كل ما يقوله معذِّبوهم، استعبدوك بشاشة هاتف وزر جهاز

تحكم، ورضيتَ بالذل والهوان فحطّك ربك وردّك أسفل سافلين، لو سافر أميّة بن خلف للمستقبل لما صدّق أنك مسلم، فلا يمكن لبلال الذي عُذّب أيّاما حتى يسُبَّ دينه وربّه فلم يرضخ له، أن يُحشرَ معك أنت الذي تشتم دينك وربّك بالبساطة والسهولة اللتان تقول بهما 'صباح الخير' أو 'كيف حالك؟'، لو تقدّم عمر بن الخطّاب بالزمن وزار القدس لسمّاك وأمثالك بـ 'القاعدين الخالفين الأذلاء'، لو جاء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فماذا سيقول؟ سيتبرّأ منك ومن أمثالك ويدعو عليك، كيف تنبذ لغتك ولغة كتاب ربك وتذُّمها ثم تفتخر بإجادتك لغة مستعمرك وإتقانها؟ تشتكي من سوء وضعك وتتذمّر، ولكن وضعك هو نتيجة حتمية تستحقِّها لرضوخك واستسلامك... والآن، لقد أمهلك الله فلم تزدد إلا إصرارًا، ثم دعاك الشيطان فاستجبت له، وقد حانت لحظتك أيها الدنيء الخسيس الحقير، هيا، مُت فلا خير في حياتك)).

مشهد أخير

يمشي أمية بن خلف متهاديًا في إحدى المدن الجزائرية، وهو يدفع بطنه العظيم أمامه، والذي راح يهتز مترجرجًا مع كل خطوة، يهرش رأسه بيده وهو يتساءل في سره: ((أين أنا بحق اللات والعزى؟)).

يلحظُ السيارات التي تخطف الطريق عابرة به، كيف تسير هذه العربات الحديدية دون خيول، ألها أرواحٌ أم أنَّ ما يسوقها جان؟ ويلمح عواميد الإنارة المضاءة في الليل، مشاعل بلا لهب، هذا غريب، كيف للنور أن يأتي بلا نار؟ يلقي نظرة على المارة بملابسهم الغريبة العجيبة، لا عمامة، ولا عباءة ولا إزار، سراويل زرقاء ضيّقة، بعضها مقطّع غير مرقّع، فقراء! يلقي نظرة على الفتيات يتجاوزنه بالعشرات وبينهن فتيان يتحادثون ويتضاحكون ويتلامسون و... أليس المفترض بكل هؤلاء البنات أن يكُنَّ في المقابر؟ لماذا لم يقم آبائهن بالواجب؟

عجيب، غريب، فعلا غريب، أأنا أحلم؟ لا بُدَّ أني أكثرتُ من لحم الضأن و... مهلًا!

يتذكر لوهلة الرمح الذي اخترق بطنه فأخرج أحشاءه، فيرتعد ويرتجف للذكرى الرهيبة ويحيط بذراعيه القصيرتين كرشه الضخم، وكأنما ليحميه من طعنة السِّنان.

بلال، ذاك العبد الأسود، يتذكر آخر كلمات سمعها: ((لا نجوتُ إن نجا))، لقد قتلني، ثأر لنفسه وشفى غليله بإراقة دمي، فلماذا ما زلت حيًّا أتنفس؟ أهذه هي الآخرة؟...أين الجنة والجحيم؟ بلال، ذاك العبد، لقد قُتِلتُ على يديه، أيُّ مهانة وأيُّ خزي وأيُّ ذل، لا بُدَّ أن أبا جهل يضحك هازئًا بي... مهلًا، لقد مات أيضًا، قطع رُويعِيُّ الغنم رأسه، غزوة بدر، الهزيمة النكراء، العار الأعظم، قُتلنا على يد العبيد والأراذل الذين كنا نعذبهم، العرب كلها شهدتنا نتقهقر بعد أن قهرنا محمد وصحبه، لا بُدَّ أننا صرنا خبرًا يُروى في النوادي والأسواق، عبرة، طرفة، يتندّر بنا كل من هبَّ ودبّ، سقطت المنزلة، ودنا الشأن، وزالت المهابة، وذهب الجاه أدراج الرياح، ماذا ستقول عنا العرب؟ نحن قريش، سقاة الحجيج، حجبة الكعبة، وسدنتها، تحجُّ إلينا الناس قاطبة لتذبح وتضحي لأوثاننا، نحن بني عبد مناف، الكبرياء والفخر ظهر بين أظهُرِنا أول مرة، ولم يغادرنا حتى تلك اللحظة، لولا إصرار أبي جهل، لولا استغاثة أبي سفيان، لولا رسول الشؤم ضمضم بن عمرو... الوحيد الذي نجا من العيب والعار هو أبو لهب، لكم أغار منه وأغبطه، خالد بن الوليد كذلك، لا بُدَّ أن نساءنا شققن علينا الجيوب، ولطمن لأجلنا الخدود، ونثرن الرمال، وأحيين الليالي بالعويل والنواح و...

انتشله صوت بوق عال من قبضة الذاكرة وردَّه إلى الحاضر، صدر الصوت من إحدى العربات السحرية التي كادت تصدم عربة أخرى، خرج سائقا العربتين واحتدم الشجار بينهما، لا بُدَّ أنهما يتشاتمان، ولكن بلسان آخر غير العربي الفصيح الذي يألفه، أهؤلاء عجم أم عرب، مهلًا... إنه يميز الآن بعض الكلمات القليلة التي يعرفها "اسمع"، "ندخل" وغيرها، ينتظر أن يسُلَّ أحدهما سيفه ويضرب عنق الثاني، ولكن هذا لا يقع، شيء لم يعهده قطُّ، إن شتم المرء امرئًا آخر فعلى رأس أحدهما أن تطير متشقلبة في الهواء، هذه هي شريعتنا، ينظر فيدرك أن كليهما لا يتقلّدُ سيفا، هذا أعجب، أين قذف بي الموت يا ترى؟ يُنصِتُ فإذا

أحدهما يذكر رب الآخر، أهو يسبُّ ربه؟ مهلًا... من هو ربُّه أصلًا؟ إن كان الأول مشركًا، والثاني مسلمًا، فعليَّ أن أتدخَّل، لن أدَعَهُ يعِيبُ ويسفِّه الآلهة، يتقدم بتؤدة ويشدُّ على الشاتم بيديه: ((أيَّ إله تشتم؟)).

يحاول الرجل التملُّص من قبضتيه، ويذكر ربه ثانية وقبلها كلمة "دَخَّلْ" بالشدة، ثم يسمع رجلًا ثالثًا يخطو نحوهما وهو يصيح: ((لا تكفر، لا تكفر))، يلتفت إليه فيرى أنه غير مسلّح، وما إن يبلغ ثلاثتهم حتى يطيحه أمية بلطمة، وهو يقول في سِرِّه: الكفر صفتنا في القرآن، يستدير إلى الرجل الآخر الذي قبضَ عليه في البداية ويقول له : ((هلمَّ، نتكالب عليه))، ينظر الثاني إليه مستغربًا بادئ الأمر من السرعة التي انقلب بها من عدوٍّ لحليف، ثم يتكالب معه على الأول ويطرحانه أرضًا، ويأخذان في ركله، يقول له أمية: ((هلُمَّ، اطعنه بالخنجر إن لم يكن عندك سيفٌ))، فيقول له صاحبه -الذي يظنه أمية مشركًا وهو يتراجع لسيارته- عبارة فيها "تهدر بالفصحى"، يركل أمية خصمه مرة أخيرة، ويذهب م عرفيقه للعربة، ويهنئه: ((لقد نِلتَ من صاحب محمد ذاك وكِلْتَ له)).

يردُّ عليه الرجل بالفصحى متلعثمًا هذه المرة: ((من محمد؟ ه... هل أنت أجنبي؟)).

أجنبي؟ هذا كلام لا أفقهه، ثم هو لا يعرف محمدا، كيف هذا وذِكْره على كل لسان، يشرح له فيما الأخير يُديرُ مفتاحًا صغيرًا مسنّنًا في ثقبٍ داخل العربة فينبعث منها هدير ومن مؤخرها دخانٌ: ((محمد بن عبد الله الذي سفّه دين آبائنا وأجدادنا، ألست مشركًا مثلي؟)).

- ((مشرك؟ أنا مسلم، من أنت أيها الغريب؟)).

- ((مسلم؟ إذًا هل كان خصمك مشركًا؟ برب الكعبة! لقد أعنتُ مسلمًا على مشرك، يا للفضيحة!)).

- ((كلنا مسلمون، لا يوجد مشركون، أنت تعيش في زمن الجاهلية ولَّا واش؟)).

لم يستوعب أمية حرفًا مما قيل، كلهم مسلمون ولا يوجد مشركون، أين أنا بحق هُبل؟ ولكن مهلًا، إنه مسلم يسب رب مسلم آخر، أي أنه يلعن الله ربه.

- ((ولكنك كنت تلعن الله آنفًا))، ثم خفض صوته هامسًا، ((أنت على النفاق إذًا، كيف حال زعيمكم أبي بن سلول؟)).

- ((أنا لست منافقًا يا غبي، أنا مسلم)). وبدأ يتحرك بعربته على مهل فشدَّ أمية على كُمِّه، وجرى إلى جواره لاهثًا وهو يقول عبر النافذة: ((إلى أين؟... مهلًا، أنا على الشرك، فأفصح ولا تكتم عني، أنت منافق، أليس كذلك؟ أين نحن؟ وما هذا المركب العجيب؟)).

ولكن الرجل أفلت من قبضته حين أسرع مندفعًا بعربته وتركه وحده في الشارع، ظننتُ المنافقين والمشركين حلفاء، فما هذه الخيانة إذًا؟ كان الرجل الذي انهال عليه ركلًا قد وقف الآن، جريحًا ينزف من أنفه وفمه الذي حطّم نعلُه أسنانَه، اتجه نحوه وهو يسبُّ دينه وربّه، فاستشاط أمية غيظًا وصرخ فيه: ((أتجرؤ وتعيب آلهتي؟ أوظننت أنكم بانتصاركم في بدر قد ربحتم الحرب؟ لا واللات والعزى، لأرينك الويل ولأذيقنك العذاب)).

وتحسّس ثيابه مفتشًا عن السوط، فلم يجده، ثم رأى على قارعة الطريق حجارة حمراء مكدسة مستطيلة الشكل متساوية في الطول والعرض كما لو أنها صُمِّمت تصميمًا، فحمل إحداها، واندفع نحو الرجل الذي شكل وجهه مزيجًا من الغضب والخوف والحيرة.

عصر التشتت

أنت على الهاتف، تشاهد فيديوها على الفيسبوك أو الإنستغرام... أجل، فيديوها، ما بالك مستغرب؟... ليست غلطتي أن هذه الكلمة تبدو شاذة أكثر من امرأة بقضيب، بل هي غلطة اللغويين الذين لم يُعرِّبوها كما ينبغي... ما خطبكَ الآن مستنكر؟ ألأني قلتُ امرأة بعضو ذكري؟ ألم تسمع عن المتحولين جنسيًا في أمريكا؟... أولئك الذين يزعمون أن الرجل يمكن أن يصبح امرأة، والأم يمكن أن تصير أبًا، حتى الحمار لو كان له أن ينطق لصرخ: ((ما هذا الغباء؟... انتزعوا منهم هذه العقول، وألقوها طعامًا للخنازير، فهذا استغلال أحسن لها من إهدارها على من لا يفكرون بها)). من أين خرجنا؟... مهلًا، قبل أن نعود إلى الموضوع لدي إعلان لكم:

ليكن في علم جميع القراء أني سأخرج عن الموضوع عمدًا مرة تلو الأخرى، وأسحب بأيديكم عبر متاهات "اللابرنث"، أخرج من بابٍ وأدخل من بابٍ لا يقابله ولا يجاوره، وأقطع معكم أروقة وممرات وقناطر لا تتصل إلا بفتيل رقيق [1]يكاد لا يُرى، هذا ما أتوعَّدكم بفعله فتحضّروا للضياع واستسلموا للتيه يا رفاق.

والآن، أين توقفنا؟... أجل، أنت على الهاتف تشاهد مقطع فيديو على الفيسبوك أو الإنستغرام، مقطعًا مضحكًا، مقطعًا تافهًا، مقطعًا سخيفًا، مقطعًا مبكيًا، مقطعًا مدهشًا، مقطعًا مثيرًا، مقطعًا حماسيًا، مقطعًا دينيًا، مقطعًا ساخرًا، مقطعًا... صفه بما تشاء، ها أنت تقرر بعد خمس ثوانٍ أن المقطع مملٌ، فتُحرِّك سبَّابتك بخفة على الشاشة، لتجعله يتوارى وتجعل المقطع الذي يليه يتبدّى، ها أنت تتابعه دون معرفة ماذا سيحدث فيه، ما موضوعه، ما رسالته، وما هدف ناشره من مشاركته، فأنت لم تره من قبلُ أبدا، ولم تفتح هاتفك وفي نيتك مشاهدته، كما تفعل حين تذهب إلى السينما وفي نيتك مشاهدة فيلم معين، باتمان مثلا، تُشاهدهُ في دور السينما هنا في الجزائر فتعود فرحًا إلى منزلك

---

[1] الأرض التي يتوه فيها السالك ولا يكاد يعرف فيها طريقا. ويراد بها في الأساطير مبنى التّيه ذو الممرات الفرعية المعقدة الذي بناه ديدالوس للملك مينوس ملك كريت، حسب الأسطورة الإغريقية، وأراد مينوس أن يجعل منها سجنًا للوحش الذي يسمى المينوطور. إذ كان يضحَّى بسبعة من شباب أثينا، وسبع عذارى لهذا الوحش كل سنة. [ويكيبيديا]

مسرورًا بنهايته السعيدة، فيما يذهب أناسٌ لمشاهدته في أمريكا فلا يرجعون إلى بيوتهم، بل يبيتون على طاولات التشريح في مستشفى ما، لأن مجنونًا ما تعلّم الدرس من الفيلم واعتبر به، فاتخذ الجوكر قدوة له لما وجده فيه من خصال حميدة مثل القسوة والسَّايكوباثية وغيرها... فحمل رشَّاشًا وعلى وجهه ابتسامة مهرج واسعة، ووقف أمام المتفرجين الذين حسبوه فقرة في عرض ترويجي، فبدؤوا يصفقون له ويضحكون إلى أن فتح عليهم "أبواب الجحيم برصاص منهمر"[2]، أهذا الاقتباس القرآني جائز؟ لا أعرف.

((حان وقت النوم... لن أسمح لكم بالسهر أكثر))، أهذا ما كان يفكر به ذاك المخبول؟ هذه حادثة حقيقية بالمناسبة، ابحثوا عنها إن لم تُصدِّقوا، علي أن أخبركم أنها واقعية لأن هناك بعض الحمقى يحسبون كل ما أتفوه به خرافة تمخَّضت عنها أحشاء خيالي الخصب، فيضحكون ساخرين من كل شيء أقوله...

مطرٌ من السمك، هاها، هل يظن أن السردين يسبح في السماء؟ هل خلط بين السماء والبحر لأن كليهما أزرق، يا له من غبي أبله، هاه؟ ماذا قلت؟! أفعى برأسين؟! هل يحسب الأساطير حقيقة؟ ماذا؟ شمسٌ لا تغرب أبدا؟ لا بُدَّ أنه قد فقد عقله...

إن كنتُ فاقدًا لعقلي، فلا بُدَّ أن المجانين هم العُقلاء في هذا العصر اللَّعين، تبًّا لـ...

أجل، أعرف، أعرف، خرجتُ بقطار الأفكار عن سكَّة الموضوع -كما توعَّدتكم- وانحرفت حتى كدت أصطدم بقطار آخر، فلنرجع للسكة إذًا...

أنت على هاتفك، تشاهد الفيديو الثاني الذي لا تعرف موضوعه ولا الغاية منه، لا مثال على فعل عشوائي اعتباطي أحسن من هذا، مهلًا، دعنا نكن إيجابيين للحظة، أنت تستكشف، تريد أن تُفاجئ، ترغب في أن تُصدَمَ بما لا تتوقع فجأة، ها أنت تُغيِّره مجددا، فيديو آخر يبدأ، لحظات أخرى تفلت من قبضتك، إنها تبدو لك رخيصة ومجانية، ولكنها حين تخسر، أو حين تهرم، أو حين تُطبِق سكرات الموت على حنجرتك وتخنقك، أو حين تقف أمام ربك يوم الحساب ستبدو لك

---

[2] القصة حقيقية والمجرم يُدعى جيمس هولز.

أغلى من الألماس، أغلى من والديك، أغلى من زوجتيك، مهلا، أليس لك زوجتان؟.. فليكن، إذًا، أغلى من زوجاتك الأربعة مجتمعات، ليس لديك أربعة؟! أووف، هيا، توقف عن التذمُّر يا من تفصلك زوجة واحدة عن كونك أعزبًا مثلي، والآن، أين توقفتُ؟ نعم، ستكون تلك اللحظات الضائعة أغلى من أي شيء في الوجود يوم الحساب، ولكن إلى أن يحين ذلك الوقت لنُتابِع قصتك... شاهدتَ الفيديو الثالث حتى نهايته ثم أطلقت ضحكة صاخبة، ونططت بإصبعك إلى الرابع... بعد عشرين فيديو قصير، تنظر إلى الساعة، إنها الثانية صباحًا، تُلقي هاتفك جانبًا، وتتدثَّر محاولًا اجتذاب النُعاس الذي حين أتاك باكرًا يتوسلك أن تغلق جفنيك طردته كما تطرد الذبابة، في النوم ترى حُلمًا، لا، بل كابوسًا بالأحرى...

أنت مُعلَّقٌ ومقيَّدٌ، تريد كلمة تجمع الاثنتين؟... أنت مصلوبٌ، ذقنك يتدلى على صدرك الهزيل، بوَهنٍ ترفع رأسك، أنت عار الصدر، هذا ما تدركه أول الأمر، ثم ترى تلك الطاولة الطويلة على مدى بصرك، وعليها مختلف صنوف أدوات التعذيب، طاولة مثل هذه ستُسيل لعاب فلاد الوالاشي، وجاك السفاح، وهتلر، وإليزابيث الدموية لو رأوها، كما يسيل لعابك لمائدة عليها مختلف صنوف الطعام الشهي اللذيذ، من بين هذه الأدوات لا تتعرَّفُ إلا على ذلك السوط الجلدي الذي تلوَّى كالثعبان، تسمع صوتًا باردًا يقول: ((والآن يا سيدي الذي لا أكترث بما يكفي لأسأل عن اسمه، أجبني... هل تذكر ما كان الفيديو الأول الذي شاهدته؟)).

تُلقي نظرة على المتحدِّث فيرتدُّ إليك بصرك مرتعبًا مرتعدًا، كلا، إنه ليس الشيطان، بل هو من سيقتلع رأس إبليس بيمناه، ثم يقتلعه مجددًا حين ينمو ثانية، ويلقي الرأس الأول جانبًا ليقتلعه مرة ثالثة، أجل، إنه من الزبانية، الشيطان نفسه يبدو هرَّة لطيفة أمامه.

إنه أحد خدم مالك أو ربما هو مالك نفسه، من هو مالك؟... ألم تقرأ القرآن؟ إنه خازن جهنم، وقد ذُكر في سورة الـ...

- ((أسرع وأجبني، ما كان الفيديو الأول الذي رأيته؟))، يقولها وهو يتعجلك رغم أنف السَّارد الذي يماطل ريثما تتذكر -السَّارد هو أنا بالمناسبة-، تعصر رأسك محاولًا استرجاع ذلك المقطع القصير الذي مللته فبدّلته، تعصرُه محاولا تذكّر لقطة واحدة، لمحة منه خاطفة كومضة برق، ولكن عقلك يقول لك معتذرًا: ((آسف يا صاحبي، لم أسجِّل ذلك الفيديو على صفحات الذاكرة، فقد حسِبته أتفه من أن يُذكر، لقد دخل من عينٍ وخرج من الأخرى)).

يقول لك الشيء بصوته البارد، وقد بدأ يعبس، والعبوس بوجهه المشوَّه ذاك يجعل فرانكشتاين ذاته يتعوَّذُ ويصيح "مسخ!"، يقول لك من خلف أسنانه المدبّبة الصفراء الخانقة رائحتها: ((لا تذكُر))، يعيدها صارخا : ((أنت لا تذكر، لا تنكر، حسنا إذًا، أتعرف لماذا جئت إليك؟)).

تهز رأسك نافيًا وأنت تنتحب، فيعطيك ظهره، ويلتفت إلى الطاولة ويبدأ في شحذ إحدى تلك الأدوات على مهل ليعطي كلماته لحن العذاب: ((بُعثت إليك لأستردَّ دين الزمن)).

تُردِّدُ حائرًا: ((دين الزمن؟)).

- ((أجل، ماذا تظن بحق اللعنة؟ أظننتَ أن حياتك هدية مجانية؟ أحسبت أنّ مَن خَلَقَ الزمن منحك بعضًا من ساعاته عبثًا دون هدف؟ لقد جئتُ أحاسبك على ما استغللت من وقتك، ما اغتمنت منه وما ضيَّعته، الضائع منه دينٌ عليك ردُّه)).

يلتفت إليك وفي يده يحمل أداة معقدة التركيب، فيها مطرقة، ومسامير، ودبابيس، وسكاكين وأشياء أخرى لم يسبق لك رؤيتها حتى، كلها متَّصلةٌ مركَّبةٌ ببعضها بطريقة لا يمكنك فهمها ولا استيعابها، ويُلقي عليك سؤاله: ((والآن أجِبني كم ستدفع لي لأتركك حيًّا يا هذا؟)).

- ((سأعطيك كل ما تشاء... سأعطيك مليارًا أرجوك لا تقتلني، أتوسلك)).

يسألك ساخرًا متقدمًا خطوة: ((مليار؟... من أين لك كل هذا المال؟ أتظن أني لا أعرف وضعك المالي؟ كل ما لديك هو بضع ملايين دينار)).

- ((سأقترض، سأعمل... أجل، اجعلني عبدك، سأخدم لديك حتى أرُدَّ ديني)).

- ((قلت بادئ الأمر أنك ستمنحني أي شيء أريد، أليس كذلك؟)).

تومئ وتجيب بلهفة من وجد المخرج بعد أن كان ضائعًا في شبكة أنفاق: ((أجل، أجل، سأفعل)).

- ((هذا يعني أن حياتك أغلى لديك من أي شيء أطلبه، ولكنك لا تملك كل هذا، وعليه فأنت تدين لي ولا تستطيع السداد، ولهذا سيتوجّب علي أن ألجأ إلى وسيلة أخرى)).

تُكرر ما قاله حائرًا: ((وسيلة أخرى؟)).

يبتسم لك ملك العذاب كما يبتسم التمساح لغزال غافل يشرب من النهر قبل أن ينقضَّ عليه ويمزِّقه إلى أشلاء: ((... لن آخذ منك المال، بل سأنتزع منك الراحة والسعادة، الاطمئنان والسكينة، الأمان والسلامة، هناك طريقة واحدة لسلبك كل هذا... وهذه الطريقة تدعى ب...))، حين كان يتحدّثُ كنتَ محتارا فيما يقول، ما غايته من كل هذه الكلام؟ ها هو يقذف بالإجابة في وجهك: ((التعذيب!)).

يتقدم منك خطوتين أخريين، لقد صار على مسافة نصف ذراع منك، يسألك مبتسماً في جهنميّة، فيما أنت تصيح محاولًا أن تَحِلَّ وِثاقكَ وتفِرَّ، تتخبَّطُ عالقًا مثل فأر في مصيدة، تهتز وعبثًا تسحب يديك من الحبال وتدفع ولكن... لا فكاك.

يسألك: ((هل تؤمن أن هناك جحيمًا في الآخرة وجنة؟ حين يُقذف الكافر في النار أتظنُّ أن هناك شبرًا في جسده لن يحترق؟ أتحسب أن هناك مناطق حساسة في سقر؟ أتحسب أن تلك المناطق ستسلمُ من العذاب؟ حسنًا، إن كنت تظن ذلك فأنت ساذج للغاية يا سيد، فالهدف من الجحيم هو إصلاء الكافرين أقصى ألوان العذاب إيلامًا، هذا يعني أن التركيز سيكون على المناطق الحساسة

أيها الساذج، والآن هل يمكنك أن تخبرني بما استفدْتَهُ من العشرين مقطعا التي شاهدتها واحدا تلو الآخر؟)).

مرعوبًا تُدركُ فجأة أنك لست نصف عارٍ، أنت مكشوف بالكامل، عارٍ كما ولدتك أمُّك، على الصليب أمامه، أنت ضعيف، أنت هش، أنت أوهن من رضيع، أنت أعجزُ من عجوز، أنت ضعيف، تسارع بالإجابة بلا تفكير، أيَّة إجابة، أيُّ رد ينقذك من قبضة هذا الوحش، أيُّ جواب يُجِيرُك من العذاب: ((أجل... أجل، لقد استفدت كثيرا، انتفعت... فوائد جمة كثيرة، نعم، منافع عديدة متعددة و...)).

- ((مِثْلَ...؟))، كلمة واحدة ينطقها تُخرِسُك، "مثل...؟".

ماذا تقول؟ تحاول تذكُّر مقطع واحد فيه فائدة، كلها مقالب مضحكة، رجال يسبُّون غاضبين بعد أن أُوقِظوا من نومهم فيما يقوم ناسٌ بتصويرهم ضاحكين، وأيدي فتيات تقوم بإيحاءات جنسية، فتيات متَّقِيات عفيفات طاهرات، لا بُدَّ أن السبب الذي يجعلهنَّ لا يكشفن عن أوجههن هو الحياء والحشمة والخجل الحميد، يا للخصال الكريمة! يا لها من زوجة مستقبلية رائعة! ربة بيت واعدة ستملأ منزلك فرحا وحبورا ولن تخون ثقتك أو تفشي سرك أبدًا... بالطبع أنا أتهكم وأسخر... ماذا كنتَ تشاهد أيضا؟... آه، يا إلهي، أنا حقا أضيع وقتي، اغفر لي هذه المرة فقط، أنقذني من هذا الجحيم يا رب ولن أعود إليها أبدا، سأعبد وأصلي وأقوم الليل وأتصدَّق و...

- ((لم تستفد ولو شيئًا واحدًا؟ كما توقَّعتُ))، يقولها الوحش ولا يضيفُ حرفًا، يرفع أداته ويضغط زرًا لترتفع المطرقة متجهِّزةً لدقِّ المسامير التي تنقذف فجأة وتنغرس في....

تستيقظ صارخًا كالمجنون واضعًا يدك بين ساقيك، وتقفز من السرير ترتجف وترتعش كمن أصابه مسٌ شيطانيٌّ، أخيرا تثوب إلى رشدك، يا له من كابوس ملعون مشؤوم!... أكثر إرعابًا من كابوس الأفعى التي تلاحقك عبر الشارع واثبة كالكنغر، أكثر إخافة من كابوس أفعى الأناكوندا التي تلفُّ جسدك وتعصرك حتى الموت أمام باب دارك، أكثر إثارة للهلع من كابوس الرجل الذي يقتحم منزلك ولا

يموت أبدا مهما طعنته بالسكين، أكثر إرعابًا من الكابوس حين أراكَ أحدُهم تاريخ وفاتك وطابقَ ذلك التَّاريخُ اليومَ الذي استيقظت فيه! أهذه مصادفة؟... إن كانت الرُّؤى من الله فهل الكوابيس من الشيطان؟... مهلًا، خرجتُ من الموضوع ثانية...

تذهب إلى عملك... ترجع منه، تستلقي على سريرك، تحمل هاتفك، تتذكر الكابوس وتقول في نفسك: ((مجرد حلم))، سرعان ما تغوص في بالوعات التيك توك من جديد، كل شيء سخيف، كل شيء تافه، كل شيء مبتذل... التيك توك وصمة عار على جبين البشرية، التيك توك مصحَّةُ مجانين يزورها العاقلون... رقصات، مقالب، ضحك، سخرية، لحظاتٌ تضيع ولا ترجع، تتوسَّد وتتدثَّرُ وتنام وعلى وجهك بسمة سرور ورضا...

الكابوس ذاته... أنت على الصليب، وهو أمام الطاولة، يقول لك: ((أوه، عُدتَ مجددا! لُقِّنتَ درسك ولم تطبِّقه، حسنًا... التكرار لن يُجدي معك، لذا سنتابع حيث وصلنا)).

ها هي ألوان التعذيب التي عانيتها في هذه الليلة:

- الإخصاء.

- الخوزقة.

- قطع اليدين والساقين.

- اقتلاع الأظافر، وسلخ الشعر عن الرأس.

- تحطيم الفك.

- سلخ الجلد.

- انتزاع الحلمتين.

هناك المزيد ولكن القائمة طويلة، ولا يمكنني أن أقرأها عليك حتى النهاية، المهم... ها أنت ذا تستيقظ في اليوم التالي....

تحمل الهاتف أولا، تحدِّقُ به مليًّا ثم تقذف به إلى الحائط، يا للكابوس! يا للكابوس الشيطاني الجهنمي! علي أن أزور طبيبًا نفسيًا، علي أن أخبره أني أزور الجحيم كل ليلة...

وها أنت ذا بعد أسبوع تقول لنفسك..

أقلعتُ عن الإنستغرام والتيك توك لمجرد كابوس، يا لهذه السخافة! صحيح أنه لم يراودني منذ أقلعت، ولكنه كابوس لا أكثر، مصادفة لا أكثر، اشتقتُ إلى الضحك والإثارة و...

- ((عُدتَ؟!... أنت حقًا لا تتعلم درسك... أتعرف لماذا أعذِّبك؟... أنا أريد أن أنقذك من شبكة العنكبوت التي أنت ضحية عالقة فيها... أريد أن أخرجك من الرمال المتحركة التي تسحبك إلى أعماقها لتخنقك. كل مقطع قصير تغيِّره بسرعة ضجرًا أو تشاهده بأكمله مستمتعًا، كل لعبة فيديو تُعيدُها مرارًا وتكرارًا، كل القنوات التي تغيِّر بينها، كلها تتجاذبك من تلابيب ثوبك، وتُطبِقُ على رأسك وتصيح فيك: ((انظر إلي... التفت إلي... شاهدني أنا... تفرَّج علي... ضيِّع وقتك علي أنا... اكتب تعليقًا، وضع لايكًا، وشاركني مع أصدقائك حتى يتفرَّجوا علي أيضا)).

يتشوش ذهنك ويتشتت، الخيارات كثيرة ولكنها جميعا تتماثل في لا قيمتها، وأنت تدمن عليها، تحبها وتعشقها، فيما هي تحفر في دماغك جحورًا عميقة تعشِّش فيها لتبقى، ديدان، يرقات، طفيليات، تتغذى على حياتك ووقتك، تجعلك لا تركز، وحين تفقد التركيز لا تستطيع تعلُّم أو اكتساب أية معرفة أو مهارة.

أتظنُّ أن المصريين كانوا ليبنوا الأهرامات لو أنهم لم يركزوا ولم يجعلوا حياتهم وحياة عبيدهم تتمحور حول ذلك الهدف؟ كل اختراع واكتشاف لولا التركيز والاهتمام لم يكن ليوجد، حتى ذلك الهاتف الذي تمسك به بين يديك، حتى ذلك التطبيق الذي تشاهد عليه، لقد كان المسلمون يحكمون أوروبا، سأعيدها لك لتستوعبها جيدًا، كنا أسيادًا على أوروبا، أتظن أن طارق بن زياد كان ليفتح الأندلس لو كان

كل يوم يلعب ألعاب الفيديو ساعتين، ويشاهد التيك توك ثلاث ساعات، والمسلسلات والأفلام أربع ساعات؟

أعرف أنك على الأغلب لن تقرأ هذا لأنك أَلِفتَ الفيديوهات والرسائل القصيرة ولم تعد تستطيع قراءة أكثر من نصف صفحة، اللهم إلا إن كنت تراجع لاختبارٍ ما...

أعرف أنك على الأغلب ستنساه أو لن تعيره انتباها أو ستركز على كلمة "الإخصاء" وتقول محنقا: ((جيل اليوم جيلٌ ضائعٌ، ما هذه الألفاظ البذيئة؟)). ولكني حقا لا أحاول إلا تبليغ الرسالة، أنا مثل من أفَاقَ وهو يحاول إيقاظ النِّيامِ حوله من سباتهم، لقد سئمتُ وضجِرتُ من حالنا المزري، نقودُ ما يصنعونه لنا من سيارات، ونلبس ما يخيطونه لنا من ملابس، ونستخدم ما يبتكرونه لنا من أجهزة، ونشاهد ما يعرضونه علينا من أفلام ومسلسلات، وتتغذى عقولنا على ما يغرسونه فينا من أفكار.

أشعر أننا نُساقُ كما تُساقُ الماشية، أبقار، أغنام، بغال يقودها الغرب الأمريكي الأوروبي بالجزرة والعصا...تُطعَمُ ما دامت تُستغَلُّ وتُستنزفُ، وتُعدم ما إن تُجنَّ أو تعجز عن أداء دورها، هذا هو حالنا اليوم... لدي سؤال لك: أليس الإسلام هو الحق؟ ألسنا على الصراط المستقيم؟ ألسنا على الحق؟ كما قال عمر بن الخطاب، فما خطبنا نخضع للخطاة العصاة؟ ما خطبنا نفرح ونضحك لمن يشتم ويسبُّ الرب والدين، ونعبس وننفر ممن يعِظُ أو ينصح، ما خطبنا نخاف ونرهب السجن والموت؟ هل فقدنا إيماننا؟هل بدّل الله بنا قوما آخرين خيرًا منا؟ أنحن منافقون في عينيه نقول ما لا نفعل؟...يا إلهي، أنا حائر، أنا ضائع، أنا تائه اهدِني صراطك المستقيم. ولكني متأكِّدٌ من شيء واحد...

استخدامُنا لوسائل التواصل الاجتماعي خاطئ، وإدماننا عليها سبب من أسباب تخلُّفنا، هذه هي الخلاصة.

حتى أنت تعرف أن ما أقوله صحيح، لماذا حين تذهب لختم القرآن تتفرَّغُ له وتهجر نهائيًا هاتفك؟ لماذا يجب عليك فعل ذلك؟ لأنك تريد أن تركِّز، وماذا يفعله هاتفك؟ إنه يفقِدك تركيزك، أنت إذًا تتفق معي.

تقول أنت فجأة: ((مهلًا... مهلًا... مهلًا، أأنت بشري أم مَلَكٌ من الزبانية؟)).
فيجيبُ الواعظ المعذِّبُ مضطربًا لانكشاف أمره: ((أنا من... الزبانية طبعا، أتظنني بشريًا مثلك؟)).

أنت تتساءل في داخلك، لماذا يحاول أحد الزبانية إنقاذك من الجحيم؟ لماذا يهتم لأمرك لهذه الدرجة؟ ثم لماذا يزورك في الكوابيس؟

ينطق المضطهِدُ بالأسئلة التي تدور بخلدك كما لو أنه قارئ أفكار، يعلن عن ثغرات الحبكة ثم يصمت قليلًا ويردُّ وقد عثر على الإجابة -التي ستُنقِذُ قصتي أنا الراوي من التناقضات التي تتربص لتنقضَّ على حكايتي وتنقُضَها فتنقضَّ كالجدار، وكأنَّ المضطهِدَ هو سيدنا الخضر وقد جاء ليقيم الحبكة-: ((الجواب في السؤال: لأنه كابوس، والكوابيس والأحلام عجينٌ من المخاوف والرغبات والأفكار والذكريات، خليطٌ من كل هذا، لا يخضع للمنطق، الخيال حصانٌ جامحٌ لا يرضخ لقوانين الواقع، قد أتحول الآن فجأة إلى بشريٍّ، أو قد أقتلعُ رأسي وألعب به كرة السلة، أو قد... أنت تفهم الفكرة فلا داعي للأمثلة)).

ملاحظة: الضمير "أنت" لا يشير إلا إلى المدمن على وسائل التواصل الاجتماعي، حتى أنا أقع في ذلك في بعض الأحيان، ثم أقلع ثم أقع من جديد، وهذا ما علينا أن نفعله في حياتنا، نقاوم حتى الموت ولا نستسلم للقنوط، أما العذاب فهو استفزاز لك يجبِرُكَ على إدراك مدى سوء وضعك، فهو إذًا مجازيٌ وليس ما يقع حرفيًّا، لذا أرجوك لا تأتِ إليَّ وتشتُمني على أني كتبت عن إخصائك في قصتي، فكل ألوان العذاب تلك مجازية، ويمكنك أن تُبدِّلها بالآثار السلبية الناتجة عن ذاك الإدمان. ركز على العبرة، ولا تبال بالتفاصيل، هذا كل ما أريد قوله.

ذات يوم...

اسمي رضا وعمري تسعة عشر سنة، كنت أحب الحيوانات وركوب الدراجات حين كان عمري ست سنوات، أما الآن فقد فتُر حبي للحيوانات، ولم يعُد بإمكاني ركوب الدراجات، هكذا الزمن يمضي إذ نتغير ونتبدّل، فلولا ذلك التغيُّر لما كان هناك زمن، ولما كان هناك "قبل" و"بعد" لأن كل الأحوال ستتماثل، وتصير حالة واحدة دائمة أبدية، لا بُدَّ أنكم في حيرة الآن، لا تبالوا لهذه الفلسفة، ولتصغوا للآتي:

اليوم سأحكي لكم بضع لحظات من حياتي، فيها شيء من الفكاهة والكوميديا...

ذات يوم حين كنتُ صغيرًا وبينما العائلة -بمن فيهم جدتي وجدي- جالسة إلى طاولة الفطور في الصباح الباكر سكبتُ كوب حليبي... سمعت جدي يدمدم ساخطًا وحُقَّ له أن يفعل، فقد كانت غلطتي لأني كنت أتحدث بحماس ملوِّحًا بيَدَيَّ ذات الشِّمال وذات اليمين، مطوِّحا بهما كما لو أني أصفع الملل وألطم الضجر طاردًا إياهما كما صفع الداي حسين ذاك القنصل -أو أشار له بالمروحة ليخرج في رواية أخرى- أصفعه وأقول له كأحمد خالد توفيق: "لا مكان لك هنا". ما هي العبرة من هذه الحكاية؟... أبدًا لا تلوِّح بيديك حين يكون أمامك شيء قابل للانسكاب، إنه درس قيم، وأنا واثق أنك ستستفيد منه في حياتك كثيرًا...

ذات يوم صدمتُ رأسي بالجزء السفلي لمقطورة شاحنة، دعوني أحكيها لكم من البداية... كنتُ ذاك المساء في طريقي إلى المدرسة، أمشي على مهلٍ مطمئنًا للوقت، فقد خرجتُ من منزلي مبكرًا، وبينما كنت أسير شردتُ وراحت الأفكار تتقاذفني بينها، أو أنني أنا من كنت أقفز بين الأفكار كالقرد يثب بين الأشجار، فينتقل من واحدة إلى الأخرى، ثم من الثانية إلى الثالثة، ثم يعود إلى الأولى، وينتقل منها إلى الرابعة، وهكذا دون توقُّف حتى يصدُم غصنًا ويسقُط، وهذا ما وقع لي بالضبط، لا أدري فيما كنتُ أفكر، ولكني أذكر أن الشمس كانت حارقةً ذاك المساء، ثم بينما كنتُ أسير إذا بالظِّلِّ يهوي علي دون أن أشعر، وبعد خطوات معدودة رفعت رأسي الذي كان مطأطئًا لأصدُمَ الحديد بقوة، كان الألم أخضرًا فاتحًا وفظيعًا، أجل... أخضر فاتح، أنا أعرف أيَّ ألوان العذاب ذُقته ذلك اليوم،

ما إن اصطدمت حتى غشى عيني لون أخضرٌ، وإذا بي أدركُ أني تحت شيء ما، وحشٌ هائلٌ جثمَ عليَّ بغتة، خرجتُ من تحته قابضًا على رأسي، لأرى أنَّ الوحش في الحقيقة مقطورةُ شاحنة، التفتُّ يمينًا ويسارًا وأنا أحكُّ رأسي متوجِّسًا من لُزُوجَةِ الدماء التي قد تتدفَّقُ منه، لا دم، لا أحد، يا لحظي الطيب، لو رآني أحدٌ وأنا أمشي تحت الشاحنة لمات ضحكًا مني، ولانتحرتُ أنا من العيب والعار...

الدرس المستفاد، لا تمشِ ورأسك للأسفل، ولا تدع ذهنك يشرُد، وحين تكون شمس الظهيرة حارقة ساطعة فلا بُدَّ ألَّا تأمن لاختفاءها فجأة دون سبب، هذه النصائح الثلاث الثمينة ستنقذك من خبطات الرأس العديدة التي لا بُدَّ أنها تسبَّبت في اختلال عقلي الذي أُعاني منه الآن!

ذات يوم حين كنتُ في الابتدائية حسبتُ أن أستاذي علاء -أحد أحسن المدرِّسين الذين تعلَّمت على أيديهم- أخطأ في جملة كتبها على السبورة، فانتظرته حتى يفرغ من كتابته لأصححه، كان لدى الطلاب أناة وصبر في تلك الأيام، وكانوا يعرفون متى يسألون وكيف، التلاميذ الذين أُدَرِّسهم الآن أشبه بالألغام التي تنفجر دون سابق إنذار، كم قاطعوني وأنا وسطَ عبارةٍ على وشك شرح ما سألوه بالضبط، كم كادوا يصيبونني بالصمم من صياحهم الأشبه برنين جرس ليس فيه زر إيقاف: ((أستاذ... أستاذ... أستاذ... أستاذ... أستاذ... أستاذ... أستاذ))، كم جعلوني أفكِّر في قطع أذني مثلما فعل ذلك الأخ العبقري الرسام فان جوخ، كم جعلوني أفكر في اقتلاع ألسنتهم القصيرة و... كلا، كلا، أنا أمزح بشأن الفكرتين الأخيرتين، ومزاحي سوداوي...

المهم، كما قلت، كنتُ جالسًا أنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي المعلم من كتابته كي أخبره بخطئِه بنبرة تجمع بين الفخر والغرور، نبرة الطاووس المزهوِّ بريشه لو كان له أن ينطقَ فتسمعَ الكلمات تنساب من منقاره مختالة متخايلة متبخترة.

فجأة عَرَجَ بي بُرَاقُ الخيال إلى مستقبل مشرق، تخيَّلتُ المعلِّمَ يعترف: ((أوه، أنت محق، لقد أخطأتُ فعلا، أنت حقًا عبقريٌ لاكتشافك الغلطة))، تخيّلته يعطيني

ملايينا من الدنانير، ويدعو الناس ليعلن لهم عن ذكائي الفائق الخارق، تصورتُ الرئيس بوتفليقة نفسه يسمع بالخبر فيهرع إلى منزلي حافِيًا بالبيجامة ليُكرِّمني: ((إنه سيبويه، وقد بُعِث!))، تخيّلتُ الرئيس يدفنني بأكياسٍ من المالِ ملايينُ أستاذي أمامها لا تبين، تخيلتُ نفسي أشتري بكل ذاك المال الذي أعطياني أحدث طراز من السيارات، تخيَّلتُني أركنُها جوار بيت جميل، تخيلتُ ابنته -ابنة أستاذي- تنتظر رجوعي على أحرٍّ من الجمر خلف باب ذلك المنزل، ابنته الجميلة التي كانت تقرأ معي في ذات الصف، والتي لا أعرف الآن إن كانت ميتة أو حية، مخطوبة أو متزوجة، أو إن كانت قد نالت شهادة الباكالوريا أو لم تفعل، بِنتُهُ التي كنت أحلُم وأنا ما زلت في الرابعة أو الثالثة ابتدائي بطلب يدها من أبيها، ابنته التي لا أذكر اليوم حتى اسمها، ولا أحتفظ في عقلي بصورةٍ لها، ولا حتى برسمٍ تقريبيٍ، لقد مُحِيَت من ذاكرتي نهائيًا، كما سيُمسَحُ الكثير من الأشخاص الذين أعرفهم الآن بعد عشر سنين....

- ((مساحة التخزين معبّأة بالكامل يا مَلِكِي 'العقل' المبجَّل، ماذا أفعل؟ لا أعرف أين أضع هذه المعلومات الجديدة المتدفقة، كل الرُّفوف والأدراج ممتلئة)).

- ((الحل بسيط أيتها الوزيرة 'الذاكرة'، تخلَّصي من المهملات، كل المعلومات التي لم يعد يكترث لها ولا يسترجعها اقذفي بها في واد النسيان، مثلًا... هذه الفتاة؟ من هي؟)).

- ((إنها ابنة أستاذه الذي يعظِّمه ويبجِّله، الفتاة التي كان يحلم بخطبتها يومًا)).

- ((هاهاها... يا للبراءة والسذاجة، كان ذلك قديمًا حين كان الغِرُّ السّاذج يخال أنه بعد الزواج سيلعب معها الغُمَّيْضة والمسّاكة طوال اليوم، والآن بعد أن اطَّلع على السر، وانكشفت له الحقيقة خليعةً سافرةً، هوى حلمه من سماء الأمل وتهشم شظايًا على قارعة طريق الخيبة الموحِل، ألقيها في الوادي أيتها الوزيرة)).

- ((ولكن يا جلالة الملك... إنها حبه الأول والأخير)).

- ((قلتُ، اقذفي بها خارجًا، واقذفي أيضًا بكل صديق تشاجر معه وحزن على فراقه أيامًا، فقد نسيهم ولم يعد لوجودهم أدنى قيمة عنده، الرومانسية والعشق

لا يعنيان شيئًا لهذا الشاب غريب الأطوار فهو لا يكترث لهما مقدار ذرة الآن، وهو مصمِّمٌ على قضاء بقية حياته أعزبًا كراهبٍ زاهدٍ، ألا تزَيْنَهُ في الجامعة -فيما كل شاب يغازل خليلته، أو يحاول جهده لاجتذاب واحدة باللابس الأنيقة، وقصَّة الشعر الرائعة، والعضلات المفتولة- يمشي كالمتشرد، ببذلتين قديمتين يبدِّل بينهما كأنهما ليله ونهاره، لا يلبس غيرهما أبدًا، وبشعرٍ أشعثٍ لا يسرِّحُه ولا يغسِلُه بالشامبو ولا يدهنه، وبجسمٍ هزيلٍ لا يقوِّيه بالرياضة، وبلحية قصيرة كثَّة لا يشذِّبها ولا يهذِّبها، إنه لا يحاول أن يجذِب بل هو يفعل وُسعَهُ لينفِّر الناس عنه، لا بُدَّ أن تلك الصدمة القوية التي تلقَّاها تحت الشاحنة أفقدته صوابه، لهذا تخلصي من صورة تلك البنت، ومن اسمها، ومن شكل عينيها، ولون شعرها، اتركي فقط ذكريات مشوشة عنها لا تستطيع أن تميِّز وجهها فيها أو تتبيَّنه)).

- ((أمرًا وطاعة يا جلالة الملك الأوحد)).

- ((أجل، أنا الملك الوحيد هنا منذ أن وأد هذا الفتى قلبه)).

آه... يا إلهي، لقد خرجنا من القصة، أين توقفنا؟ لقد نسيتُ... مهلا، أنا أتذكر...

استيقظتُ من المستقبل الزاهر الباهر الذي رسمه خيالي لأجد المعلم قد استدار بعد أن فرغ من كتابته فأسرعت برفع يدي وبادرته: ((يا أستاذ، لقد أخطأت هناك، كتبتَ كذا والصحيح كذا)).

فأجابني الأستاذ بنبرة ضجرة ملول كما لو أنها لهجة الكسلان لو كان ينطق فتخرج الكلمات من شفتيه زاحفة ببطء الحلازين: ((لا، أنت المخطئ، فقد كتبتُ كذا لأني قصدت شيئا آخر وهو كذا)).

عبارةٌ واحدةٌ حطَّمت ذلك الحلم الجميل فكأنما هما الطائرتان تصدمان ذلكما البُرجين في الحادي عشر من... أنتم تعرفون عما أتحدث، الدرس المستفاد من هذه اللحظة...

أعِد التفكير مرارًا وتكرارًا في القول قبل أن تلفِظه، وانظر إليه من جميع الزوايا وتأمله من كل النواحي، ثانيًا، لا تستغرق كثيرًا في أحلام اليقظة والآمال الزائفة

وخيالات المستقبل البرّاقة فلا أحد يعرف ما سيأتي، قد يكون الموت هو القادم، لذا نصيحتي لك هي أن تتوقع الأسوأ حتى يبدو كل ما يحدث جميلًا رائعًا بالمقارنة.
ثالثًا، تزوَّج!... مهلًا، ماذا؟...صحيح أني شخصيًا لن أفعل، ولكن لا تتخذني قدوة فأنا حالة خاصة، ولي مبرِّراتي التي اقتنعتُ بها.

انتهت القصة.

هذه بضع لحظات من بين تسعة عشر عامًا شاركتها مع العالم، لماذا يجب أن يكون للقصص عبرة واحدة واضحة؟ نحن لا نعيش بهذه الطريقة، نحن نواجه عدة مشاكل في آن واحد، نضع نُصب أعيننا عدة أهداف، تصادفنا عدة عواقب، لنا عدة أعداء، وعندنا أيضا عدة أصحاب، وتستحوذ على عقولنا عدة أفكار.

أعتقد أن حَيَوَاتِنَا قصصٌ نحن من نكتبها، قصص كل منا البطل فيها، نحن لا نتحكم إلا بأنفسنا فيها، نتحكم بأفعالنا وردَّات الأفعال، هناك منَّا من يكتبُ حكاية باهرة رائعة يعجَبُ الناس بالبطل فيها فيقتدون، وهناك من يؤلف قصة مأساوية حزينة يعتبرُ الناس بمصير بطلها المعذَّب، بعواقب اختياراته السيئة فيحذرون.... هذه هي الكوميديا والتراجيديا التي نصادفها يوميا في واقعنا المعيش....

الروايات والقصص الخيالية لا تنزلُ وحيًا من السماء، فالإلهام يعثر عليه المؤلف على الأرض في الناس حوله، فهو ليس إلا مرآة تعكس حاله ومشاكله وثقافته، وحال المجتمع من حوله وعقلِيَّته، ولكن هناك مشكلة واحدة نواجهها حين نروي حكاياتنا الشخصية فنحن لا نملك النسخة الكاملة المثالية لقصصنا الخاصة نفسها، نحن ننسى الكثير من الأحداث والوقائع، وتخفى علينا الكثير من الأسرار والخبايا، لهذا نجد في التاريخ روايات مختلفة متضاربة، لأن عقولنا ناقصة، وذاكراتنا خوّانة، ومعرفتنا مهما كبُرت ووسُعت غير تامّة فالحقيقة الكاملة لكل ما مضى وما يقعُ وما سيأتي لا يعرفها إلا واحد، الإله، أتعرف ما سأفعل؟ سأضيف شيئًا إلى قائمة أمنياتي التي سأحققها إن وفقني الله لدخول جنته...

الأمنية رقم 12: قراءة رواية حياتي كاملة تامة من غير نقصان، بكل تفاصيلها وأحداثها وشخصياتها.

ولكني سأروي لكم لحظات من حياتي حسب ما أذكره، وسأحاول أن أجمع في كل مجموعة قصصية باقة مسلية ومفيدة و...

- ((بمن تعبث؟ أتهزأ بنا نحن القراء؟ هذه ليست قصة لعينة!))
كلا، إنها جزء صغير من قصتي، فأنا أحاول أن آتي بشيء لم يسبق أن...
- ((تبًا لهذا الهراء، أريد حكاية عادية، عقدةً وحلّها... بطلا ورفاقه، وعدوه وأتباعه)).
حسنًا، حسنًا، في المرة القادمة س... مهلًا، ماذا؟! لقد أغلق الخط في وجهي! هذا جزاء من يحاول الإتيان بجديد.

قاطع رحم (الصغرى)

لماذا أنا عاجزٌ عن التحدث معهم؟... لماذا؟ أليس لديَّ لسان؟... بلى... أأنا أبكم؟ لا... إذًا، لِمَ لا أستطيع نُطقَ كلمة؟... كلمة واحدة فقط...دعوني أحكي لكم قصة بؤسي ومعاناتي، كلا، أنا لا أقُصُّها عليكم لتشفقوا علي وتَرْثوا لي، فأنا أستحق العذاب والشقاء اللذان أنا فيهما، أصطلي وأكتوي.

اسمي لا يهم... ادعوني ما شئتم وانعتوني بأقبح الصفات، أنا عِصَام الحقير البغيض، أنا هشام النذل الوغد، أنا حاتم القذر الناكر للجميل... عائلتي كبيرة، هذا أول ما يجب أن تعرفوه عني، لي سبع عمات وثلاثة عشر عمًا، وخمسة عشر خالا وثلاث خالات، ولكل من هؤلاء أزواجهم وأبنائهم ولبعضهم أحفادٌ حتى، فشجرة عائلتنا طويلة وعريضة، متشابكة الأغصان، كثيرة الثمار والأزهار.

حين كنتُ طفلا صغيرا كنتُ ككل الأطفال ألعب مع أبناء أخوالي وأعمامي الغُمَّيضة والمسَّاكة وغيرها من الألعاب الساذجة البسيطة، أذكر لعبة منها نستعمل فيها الأيدي فيطبِق أحدنا يديه مُلصقًا بعضهما ببعض ثم يقول لصاحبه: ((هلمَّ، اُطرُق))، فيطرق فيفتح الأخير يديه ويقول... ماذا يقول؟... لقد نسيتُ، هذه الذاكرة الضعيفة لا تكُفُّ عن خذلاني، المهم أننا كنا لا نكُفُّ عن اللعب والتشاجر والتسامح وارتكاب جرائم شنيعة لا نُعاقب عليها لأن البراءة ثغرة لنا نحن الأطفال نتملص بها من قبضة العدالة، ألقيتُ سكِّينا من فتحة تهوية الأرضية على رأس أمي ذات مرة، كان ليصيبها لو انحرف مقدار شعرة، كان ذلك عن غير قصد بالمناسبة فقد انزلق من يدي، ليس هذا فقط فقد شهدتُ أبناء جيراني يُعدمون ضفدعًا ذات يوم، وضعوا على بطنه حجرًا وعجنوه به، وهذا فقط على سبيل الذكر لا الحصر، ارتكبتُ من الجرائم في صغري أكثر مما اقترفتُ في كبري.

المهم أني كنت ألعبُ وأعبثُ وأتشاجر مع أبناء أقاربي باستمرار، كلهم دون تفريق كانوا رفاقًا لي لا يتفرَّقون عني، فما الذي حدث؟ ما الذي تغير؟... صرتُ لا أتحدث إلا مع اثنين منهم، أما الآخرون فلا أتبادل معهم سوى أحاديث مقتضبة لا

تتعدَّى سوى السؤال: ((كيف حالك؟))، والرد: ((أنا بخير))، لا تتلاقى أعيننا أبدًا كما لو أنَّ نظراتنا لو التقت فسنُصَابُ كلينا بالعمى، أصبحتُ لا أزورهم ولا أراهم إلا خلال المناسبات، وحتى خلال هذه الأعياد أتململ في مقعدي منتظرًا على أحرِّ من الجمر لحظة يُؤذَنُ لنا بالرحيل، الجفاء والفتور، البرود والجليد الذي يأبى أن يذوب، كل هذا كان يُعذِّبني ويجعلني لا أطيق لقاءهم. كيف آل الأمر إلى هذا الحال؟ متى تغيرت الأمور بالضبط؟ لا أستطيع التذكر...

لي ابن خالة يكبرني بستِّ سنوات، ابن خالتي هذا كان يُغرقني في المسبح حتى أوشك على الموت، وكان يدفعُني إذا لقاني في الطريق، وكان يخنُقني حتى يحطِّمَ عنقي ليأخذ مني قطعة حلوى، كنت أُسامحه حين كنتُ صغيرا، ثم حين كبرتُ قررت ذات يوم أن أنقطع عن الحديث معه حتى يسعى إليَّ متوسِّلًا الصفح.

لم يأتني حتى الآن، ولم أكلِّمه منذ ذاك الحين إلا لِمَامًا، ولكني كنت أداوم على مصافحته، ولا بُدَّ أنه لاحظ أني أتجاهله لأنه ذات عيدٍ وأمام أعين أعمامي كلهم حين مددتُ يدي لأصافحه تركها معلَّقة في الهواء وتجاوزني قائلًا: ((اغرب عن وجهي))، ثم جلس إلى جواري دون أن يلتفت لي، تركني هكذا بوجهٍ أحمرٍ من الصَّدمة والعار والغضب.

لي خالٌ سريع الغضب، شديد اللهجة لم أكلِّمه منذ سنوات، خالي هذا يشاركني حب الحيوانات الأليفة كالأسماك الذهبية والجِراء، خالي هذا سبَّل نفسه لنقلي إلى الابتدائية تسعة أشهر حين انكسرت ساقي، كان كل يوم يأتي إلى منزلنا قبل الذهاب إلى عمله لإيصالي إلى المدرسة، كل يوم... خالي الذي لا أتحدث معه، ولا أزوره، ولم أشكره بعد أن شفاني الله... لم أقدِر على التعبير عن امتناني الشديد لمساعدته حين أوصلني للمرة الأخيرة، كنا وحدنا داخل السيارة، جالسَيْن جنبًا إلى جنبٍ، وكان يقود على مهله... حاولتُ أن أنطق فانطوى لساني على نفسه... كلمة واحدة... شكرًا... كلمتان... شكرًا جزيلًا... حفظك الله... لا كلمة... لم أقدر على كسر الصمت، تخيّلته يسخر من شكري، أو يرُدُّ عليّ بقسوة: ((أنا لا أفعلها من أجلك يا قاطع الرحم الحقير... كم سنة مضت على آخر مرة زُرتني فيها؟... حتى في زياراتك النادرة دائما تأتي مع أبيك... هذا يعني أنه لولا إجبار والدك لك لما

أتيتَ أصلا إلى يوم تحملُ نعشي إلى القبر... أنا أفعل هذا لخاطر أبيك... عُد إلى حاسوبك اللعين في القبو، واجلس أمام شاشته، وتفرَّج عليه حتى تموت أمامه وتتعفَّن دون أن يشعُرَ بك أحد...عُدْ إلى حاسوبك، واكتب قصة أخرى سخيفة، فيها عِبَرٌ ومبادئ أنت ذاتك لا تطبِّقها أيها المنافق الخسيس... احتفظ بكلامك المعسول هذا لنفسِ...)).

- ((وصلنا)). قالها خالي فودَّعتُه ونزلتُ، فانطلق بسيارته دون أن أشكره.

حين نلتقي في المناسبات يجلسُ رجال عائلتنا في الصالون للمنزل، أعمامي وأبنائهم وأزواج أخواتهم ويستغرقون في حديث لا يتوقف يناقشون فيه مختلف المواضيع... يتكلمون عن التاريخ أحيانا، وعن السياسة غالبًا، وعن المشاريع الاقتصادية، وعن المتوفِّينَ والمتزوِّجينَ حديثًا، حديثٌ متنوع يكاد يبدو عشوائيًا لا غاية له ولا مقصد، فالموضوع يتغير كل لحظة، والجدال يستمرُّ ويطولُ ويتشعَّبُ حتى ينسى المتناقشون فيما كانوا يتجادلون بادئ الأمر...

لو دخلتَ الصالون في أيٍّ من تلك المناسبات، وجالت عيناك بينهم تفتِّشُ عني لوجدتني في الركن منزويًا منطويًا متقوقعًا على نفسي، أرهف السمع ولا أنطق بحرف، لو سجلتَّ صوت أو فيديو ذلك اليوم، لرأيت كل الشفاه تتحرك ما عدا شفتاي، ولسمعت كل الأصوات من أخشنها إلى أرقِّها، ومن أصدحها إلى أخفتها، جميعها إلا صوتي، لو شاهد ناسٌ من المستقبل ذلك الفيديو لحسِبوني تمثالًا، صنمًا أصمّ نحته وطلاه أمهر نحّاتٍ في العالم حتى يبدو صورة طِبَقَ الأصل لإنسان، أو لربما خالوني دمية محشوَّة خاطوها في أحد أفضل مصانع الألعاب، ولو كانوا يعتقدون بالميتافيزيقا لشَكُّوا في أني شبح لا يُرى، ولو كانوا متعصبين للمنطق والعلم لقالوا أني أبكم لا يعلم لغة الإشارة، أو مجنونٌ شارِدٌ، أما أنا فأشعر في تلك اللقاءات كما لو أني مزهرية، ديكورٌ لا غاية منه سوى ملء الفراغ في الغرفة، ولهذا أمقتُ حضورها.

في جلساتنا تلك في الصالون هناك زوجٌ لإحدى عمّاتي وهبه الله الكاريزما والطلاقة والبداهة، هِباتٌ وامتيازاتٌ لا يعرفُ كم أغبطه عليها، اسمه؟ ادعوه بما

شئت، أنا سأسمِّيه "الحجّاج" فقد سمعتُ أنه كان أخطب الناس بعد علي بن أبي طالب، هذه سُمعتُه رغم أنه كان يبادرُ بقطع الرقاب ما إن ينزل من المنبر، إن كان يجب للنُّقّاد أن يقسوا على أحدهم فلا بُدَّ أن يكون هو، لذا لا بُدَّ أن خُطَبَهُ كانت شديدة الوقع على الأنفس، وأنا أحسبُ أغلب خُطبِه وعيدًا وتهديدًا بضرب الأعناق، ماذا كنت أقول؟... أجل، هذا الحجَّاج في الصالون كان صيّادًا محترفًا لآذان المستمعين، يعرِف الطعم المناسب وطريقة الإلقاء المناسبة لاجتذابها، وكان من شدة فصاحته يعمي الأعين ويدفع النظرات عن لعابه المتطاير المتناثر، فالناس تسمع الكلمات التي تخرج من بين شفتيه، ولا ترى اللعاب الذي يخرج من ذات الموضع، وهذا خيرُ مثالٍ على سحر البيان.

كنت أغبطه وكنت أغبط كل متحدثٍ لَبِقٍ، أو خطيبٍ بارعٍ، وأتساءل في سرِّي لماذا لم يصر هؤلاء سفراء وسياسيين؟ فالسياسة تتطلب الخطيب الفصيح الواثق والقائد الكاريزماتي، أو أن هذا ما كان عليه الحال في قديم الزمان.

أحيانا أشعر كأني شبح لا يُرى، بعض الناس أناديهم فلا يسمعونني، وبعضهم الآخر أكلِّمهم فلا يُلقون لي بالًا، وبعضهم يرون أني أتحدث، ثم يقاطعونني مع ذلك كما لو أني قطة تموء أو بقرة تخور أو كلب ينبح، فلا أحد يكترث لما يقول هؤلاء.

حين يفعل الناس بي هذا، أقاوم رغبة عارمة في تحطيم شفاههم باللكمات، وتشويه وجوههم بالركلات، وأُنصت لهم حتى ينتهوا من كلامهم منتظرًا دوري، ثم أبدأ بالكلا... وها هو وغد آخر يقاطعني... لهذا أنا صموتٌ لا أتكلمُّ، لأن أغلب من حولي لا يلقون بالًا لما أتفوّه به، فهم يظنونه مجرد هراء وسفسطة وخيال وفلسفة، وأنا أتقبّل هذا منهم وأرضاه، لأني أنا نفسي لا أكترث مقدار ذرة لحديثهم عن أحدث أنواع السيارات، وأفضل هواتف الآيفون، وهذا الملياردير هناك الذي له فيلا، ومنازل فخمة يؤجرّها، وذاك الملياردير هناك والذي له أشياء أخرى لا تثير فيَّ أدنى اهتمام، أكره الماديّات وأرى الحديث عنها تبذيرًا لنعمة الكلام، لماذا لا يشتري الناس أيَّ هاتف لعين يؤدي وظائف الاتصال والمراسلة والتصوير والأنترنت أيًّا كانت علامته؟ لماذا يجب لهم أن يختاروا الذي فيه أربع كاميرات؟

ولماذا لا يشترون أية سيارة تؤدي وظيفة النقل؟ لماذا يجب أن يركزوا على بعض الفروقات الطفيفة التي تجعل بعض العلامات التجارية أفضل من بعض؟
وبالتالي الأشخاص الذين يملكون الماركات الأغلى والأحسن هم الأسعد والأفضل، وهم القدوة والأسوة، وهم الذين لا بُدَّ للأسر أن تتنافس في التصاهر معهم فابنتهم الساحرة الفاتنة أو ابنهم الذكي العبقري هو شيك ينتظر التوقيع، أنا ألبس أيًّا كان، وأنام على أيٍّ كان، وآكل أيًّا كان -كلا، أنا أكذب فأنا أتخيَّرُ حين يكون لديَّ الخيار، ولكن خياراتي كلها متقاربة في الثمن- وأتفرّج على أيٍّ جهاز كان، لأنه لا فرق على الإطلاق، هذه هي الدنيا، وهي لن تُرضِيَك، ونهاية حياتك هنا هي الموت، سواءً كنت مدقع الفقر أو فاحش الثراء نهايتك واحدة، ستموت عجوزًا ربما، وتُدفن تحت التراب، ويأكلك الدود، لماذا تلهث خلف شيء فانٍ زائلٍ؟ كل سيارة فارهة اشتريتها سيصيبها العطب، وكل طعام لذيذ سيُهضم ثم يُطرح ويجعلك حينها تشمئزُ منه، كل هاتف سيصيبه الخلل وستشتري غيره، لستُ أدعوك هنا إلى عيشة المتشرِّدين، ولكني أقول لك أنه ما إن يصير لديك سقفٌ تنام تحته، وطعامٌ تأكل منه، ونورٌ ترى به، وماءٌ تشرب منه فاحمد ربك واقنع، لا، لستُ أقول لك أن تزهد وتتنسّك، بل أنا أدعوكَ لأن تجمع المال دون أن تعبده وتقدِّسه، وتنظر إليه على أنه الغاية الأسمى، كن غنيًّا ولا تكن بخيلًا، كن ثريًا ولا تكن متكبرًا، شخصيًا اهتمامي وتركيزي ليس منصبًّا على المال، فأنا سأُفرغُ جيوبي كلها في سبيل تحقيق حلمي والذي هو...

سأترك هذا سِرًّا لوقت لاحق، لنكمل قصة قطع الرحم...

أنا لا أعرف أسماء بعض الأولاد، ليس أيَّ أولاد بل بعض أبناء أعمامي وخالاتي، حديثي الولادة منهم على وجه الخصوص، فأنا لم أحضر يوم ختانهم، لسببين بسيطين وهما... لا أحب البيض المسلوق، بالذات حين يُقدّمُ وحده دون خبز، وأنا لا أحب الرُّضّع أيضًا، لا أحتمل بُكاءَهم الذي لا ينقطع، وأعتقد أن الله جعل بكاءهم مزعجًا إلى أقصى حد لحكمة بالغة، وهي أن يجعل الأمهات يهرعن لتلبية حاجة الوليد أيًّا كانت لإخراسه.

أكره الصور أيضًا، لهذا لن تجدني في أغلب صور العائلة، أكره الصور لأنها مقاومة يائسة لعدوين لدودين للإنسان، النسيان والزمان، حين نلتقط صورة فنحن نحاول احتجاز اللحظات السعيدة -التي نعرف في قرارة أنفسنا أنها ستمضي بلا رجعة- لنتذكرها فيما بعد، كلا، هذه مجرد فلسفة، السبب الحقيقي لكرهي للصور أكثر غرابة، لدي هوسٌ شديدٌ بألّا أترك للناس القادمين بعدي أثرًا يدُلُّهم على وجودي، فأنا مثل القاتل حريصٌ على ألا أترك بصمة، أريد للناس في المستقبل أن يتجادلوا حول حقيقة وجودي، هل عِشتُ حقًّا أم أنني شخصية أسطورية فلكورية مثل جحا وروبن هوود وابن سبأ وغيرهم؟ لا بُدَّ أنك تحملق في الصفحة مستغربًا مفكرًا: ماذا يقول هذا المخبول؟ اختر أيَّ السببين يرضيك، ولكن الحقيقة الثابتة هي أني أبغض الصور.

ما الذي يجعلني قاطع رحم أيضًا ولم أذكره؟ آه، أجدادي، لدي جدان وجدتان طبعًا، كلهم باستثناء واحدة لم أتكلم معهم كما ينبغي لي منذ زمن. حين كنتُ صغيرًا كانت جدتي تداعبني وتلاعبني، وكنت أسردُ على مسامعها ما تعلمته في المدرسة كل يوم...

- ((اليوم درسنا في الحساب الطرح))، أقول ثم أكتب بالطبشور على السبورة عملية طرح بسيطة لا استحفاظ فيها وأحُلُّها وأنا أخال نفسي آينشتاين.

تردّ جدتي: ((لقد تعلمتُ ذات الدرس قبل يوم واحد، نحن متقاربان في الدروس إذًا))، ثم تعطيني مثالا لعملية طرح من الدرجة الثانية -بالاستحفاظ- فيخِرُّ فخري بذكائي الحاد ويركع متواضعًا أمامها، فجأة تأتي ابنة عمي التي تسبقني في الدروس -لأنها في ابتدائية مختلفة- وتحلُّها فتمتلأ نفسي غيرة وحسدًا.

هكذا كنتُ أنا وجدّتي أما الآن، فنحن نجلس والصمت يلفُّنا كالكفن، لا تقطعه سوى عبارات قصيرة قليلة تحاول خرقه فترتدُّ عنه خاسئة، هذا هو حالنا اليوم، والسبب حين أفكر في الأمر هو أني كبرت وفِقْتُها علمًا وإن لم أفُقها حكمة، لا أستطيع أن أتحدث مع جدتي حول الفلسفة أو الأدب، فالمواضيع التي تثير اهتمامنا وتشدُّ انتباهنا مختلفة كالليل والنهار، ولكني حين أمعن التأمل في هذا

السبب أدرك أنه مجرد عذر سخيف قدِمتُ به حتى أُريح ضميري، والدليل أني أستمتع بالحديث مع جدتي الأخرى، والتي تحكي لي من الذاكرة أحداثًا صادمة عجيبة وقعت في مدينتنا حين كانت قرية صغيرة لم تبسُط أحيائها ولم تفرُد شوارعها بعدُ، وقائع لا يعرف عنها أبناء أعمامي شيئًا مثل مقتل قريبٍ لنا خنقًا، أو اندلاع حريق كبير في أحد الحوانيت الشهيرة أو... أو... أو... أقول لكم أيها المستمعون، اجعلوني عبرة لكم ولا تكونوا مثلي، اهرعوا إلى جدَّاتكم لتسجّلوا عنهم التاريخ فلا يضيع منكم.

إذًا، قد اعترفتُ لكم ببعض آثامي وذنوبي، وكشفتُ لكم عن وصمات العار التي تكلِّل جبيني بالخزي، في نفسي ندم وحسرة، وقد قلتُ لها مسرِّيًا...

يومًا ما حين أنشر كتابي الأول -هذا هو حلمي- سيترجّونني للمشاركة في أحاديث الصالون تلك، وسأكلمهم في أيِّ موضوع شئت، وسيسمعونني مع ذلك.

يومًا ما إن أغناني الله سأُكفِّر عن خطئِي، وأردُّ لخالي جميله بأن أُفاجئه بسيارة أهبها له شكرًا وامتنانًا.

يوما ما حين أكبر سوف أدعوهم لوليمة فاخرة، وأتركهم حتى يملؤوا بطونهم لحمًا ومرقًا، ثم بعد جمع الأطباق أقوم طالبًا الكلمة، وأطلب منهم المغفرة والصفح، ثم نعود كما كنا قديمًا حين كنتُ صغيرًا.
يوما ما س...

أموت وأدخل النار لأن الجنة لا يشمُّ ريحها قاطع رحم، هذا ما توعّدني به الرسول، أنا أخدع نفسي بالأماني، "يومًا ما... يومًا ما... يومًا ما"، لن يأتي ذلك اليوم أبدًا.

ولكني لا زلتُ أُمشِّطُ عن عِلّة عِلّتي، عن سبب مرضي هذا، متى تحوّلتُ إلى هذا البارد الخالي من المشاعر؟ ماذا أصاب قلبي ليتحجّر ويموت؟ أظن أن طبعي وفطرتي كانطوائي منعزل معتزل منزوٍ تجعل من العسير علي أداء صلة الرحم كما ينبغي، أهذا عذر آخر أنتحله لنفسي؟... ربما... مهلا، نسيتُ أن أذكر شيئا...

أجلس قبالة ابن خالتي الذي لا أرغب في مسامحته، ولا أكفُّ عن مصاحفته، فأسمعه يقولها بصوت مسموع موّجهًا الكلام لأذنيَّ دون أن يلتفت إلي: ((أنت ميتٌ... أنت جثةٌ... أنت جيفةٌ متحللةٌ متعفنةٌ من الداخل)).
إنه لا يقصد جسدي، بل هو يصف قلبي وروحي، أومئ برأسي وأؤمِّن على قوله محدثًا نفسي: ((أجل، أنا كما تقول تمامًا، أنت محق في كل شيء تقوله أيها اللعين)).

أحاول أن أسامحه وأصفح عنه لأنه العيد، وأفتح حوارًا معه لا معنى له ولا حلاوة تكاد كلماته تنطق وتصرخ فيَّ أن "أطبِقْ فمك"، فينتهي الأمر بي في ليلة العيد بقطعة لحمي مسروقةً.

هذه قصتي المثيرة للشفقة، أنا هشام قاطع الرّحمِ ميِّتُ الضمير متحجر القلب، أنا عصام المتكبر ناكرُ الفضل والجميل، أنا حاتم الانطوائي المنغلق المتقوقع...

مطعم

لقد نجحتُ، أعرف أنكم لن تُصدِّقوني حتى لو أقسمت، ولكني نجحتُ، أنا أول من يفعلها، أنا أول من يحقق هذا الإنجاز الهام، أنا أول من يخطو الخطوة الأولى في مسار لم يسبق للبشرية أن اتَّخذته. طريق الحرير، العالم الجديد، وكل ما عداها من الاكتشافات لا تساوي عظمة نصف ما أنجزت، أتريدون أن تعرفوا ما الذي فعلته؟

لقد سافرتُ عبر الزمن والمكان في الآن ذاته...قلتُ لكم أنكم لن تصدقوني، ولكني فعلتها، بالطبع لا توجد رزنامة هنا، ولكني واثقٌ أني سافرت ألف سنة إلى المستقبل على الأقل، أما من حيث المكان فهذا الكوكب الذي أنا واقفٌ على سطحه ليس الأرض، ولا حتى الزهرة أو المريخ، إني خارج مجرة درب التبانة، لا أعرف على سطح أيِّ كوكب أنا تحديدًا، ولكن لا تقلقوا فأنا لستُ ضائعًا ولا تائهًا ولا ضالًّا، فقد وضعتُ بفضل عبقريّتي الفائقة -التي مكَّنتني من ابتكار هذه المركبة، التي تمشي بكيفية معقّدة لا طائل من شرحها، لأني موقنٌ أن عقولكم الصغيرة الضئيلة الضعيفة الواهنة الساذجة لن تقدر على استيعابها- حسابًا لكل مشكلة وكلِّ تفصيلة مهما صَغُرت وحقُرت ولم أغفل تفصيلة الرجوع الهامة الخطيرة.

مهلًا... لقد غيرتُ رأيي، سأشرح طريقة سفري عبر الزمن والمكان، فربما، ربما يولد أحدٌ من بين ملايير البشر ويكون له نزرٌ من ذكائي الحاد الخارق فيستوعبها -بمعجزة ما- ويحاكيها فيتمكن من الهروب من تلك الأرض اللعينة التي لا تقدِّر العلماء بل تهزؤ بهم وتحطمهم حتى يموتوا مختنقين بالاكتئاب والحنق الكظيم.

أولًا، بنيتُ سفينة فضائية من الخردوات التي جمّعتها على مر السنوات من حاويات القمامة ومكبّات النفاية، جمعتها وخزّنتها في مرآبي، ثم نقّبت عن جرام من المادة المضادة النادرة، جرام آخر يقابله من المادة العادية من أي جسيم كان، فهذا وقود سفينتي، لن أخبرك أين وجدتها بالطبع، فهذا منجمي الذي لن أشاركه مع أحد، فلو فعلتُ لنضب مَعينه في أقل من يوم.

بعد هذا حصلتُ على "الديليثيوم"[3] وهي صمام الأمان الذي أحتاجه حين أمزج المادة بمضاداتها فتحدث التفاعلات التي تفني المادتين وتحولهما إلى طاقة خالصة هائلة، هذه الطاقة ستصنع حقلًا مغناطيسيًا من الإلكتروبلازما والتي ستعزل بدورها السفينة الفضائية وتشكل حولها فقاعة من الزمكان، أعرف أنك محتار، قلت لك أنك لن تستوعبها أبدا، فليكن، سأوجه كلامي إلى ذلك النابغة الذي سيظهر بين مليارِ شخصٍ والذي سيأتي بعدي ويقلِّدُ ما صنعته، الزمن في فقاعة الزمكان هذه سيمضي بشكل أقل بطئًا من الزمن في الفضاء الخارجي، وتلك الطاقة الهائلة المنبعثة من التفاعلات ستجعل ذلك الفضاء ينكمش أمامي ويتوسّع خلفي، وسيقذفني هذا كالرصاصة إلى الأمام، تريد أن أقرِّب لك الأمر، إنه أشبه بالتجديف، تسحب الماء من جانبيك، وتدفعه خلف قاربك لتتقدم للأمام، السفينة تفعل المثل، الفرق أنها تسحب الكون من أمامها وتدفعه للوراء لتتحرك بسرعة ال...بسرعة ال... لن تصدق الآتي....

أنا أسابق الضوء وأسبقه، فما هو إلا حلزون أمام سفينتي التي تطير، ولكني لا أشعر بتلك السرعة داخل فقاعتي لأن الزمن فيها أبط... لن أكرر الشرح، ولكني سأقرِّبُ لكم الأمر بتشبيه، أتعرف شعورك حين تكون داخل سيارة منطلقة بسرعة كبيرة، لو وقفت على نافذتها لربما حلَّقت طائرًا من شدة السرعة، ولكنك حين تكون داخلها لا تشعر إلا بضغط خفيف يدفعك إلى مقعدك، هذا هو شعوري ببساطة.

أما خطتي للعودة إلى الأرض فهي...

لقد صمَّمتُ لأجل هذا الغرض بذلة من مادة "الخُرافتيون" النادرة، والتي تنجذب بقوة إلى مادة "الخُزعبليون" الأشد ندرة منها، والتي صنعتُ منها "جاذبًا" ليسحبني وقتما أردتُ وأينما كنتُ، أعرف أنكم تتساءلون، ماذا لو كنتُ في مكان مغلق؟ فحينها سيسحبني الجاذب فأرتطم بالعقبات، وأكسر عظامي.

---

[3] هي مادة خيالية استُعملت في مسلسل الخيال العلمي "Star Trek" في الاستخدام الآمن لتفاعلات المادة والمادة المضادة، أما طريقة السفر عبر الزمن المشروحة هنا فهي تدعى ب "Warp Drive" وقد استُخدمت مرارًا في قصص الخيال العلمي.

ألم أقل لكم أني عبقري وضع لكل شيء حسابه قبل أن ينطلق في رحلته؟ لقد زرعتُ بداخل جسدي جهاز تعقب أسميته "أكس-45" ، وأطلقتُ قمرًا صناعيًا صغير الحجم حالما وصلتُ إلى الكوكب، هذا القمر الصناعي سيرسل موقعي إلى المركبة التي ستقوم تلقائيًا بتحديد الحواجز والعواقب التي تحيط بي، وتزيلها دون إصابتي بالأذى، قبل أن تجذبني لداخل المركبة وتُعيدني تلقائيًا إلى باحة منزلي الخلفية. أنا عبقري، أليس كذلك؟... ستيفن هوكينج، آينشتاين، بيل جيتس، إلون موسك، لا تخلط بيني وبين هؤلاء الحمقى أرجوك، فأنا الأذكى منهم جميعًا، الدليل هو أني واقفٌ على وجه كوكب آخر، بينما نصفهم يتعفنون في القبور تحت الأرض، ونصفهم الآخر في منازلهم على ذات الأرض.

وقد اخترعتُ بالإضافة إلى ابتكاري هذا العديد من الاختراعات العظيمة النفع، ولكن زملائي الملاعين من الباحثين والمختصين المتحذلقين لووا رؤوسهم مستكبرين، وأبوا أن يعترفوا بتفوقي عليهم.

دعني أذكر لك بعضًا من مخترعاتي وفوائدها الجمّة:

الاختراع الأول: روبوت ذكي أسميته "CWE-9000"، ويختص بأداء وظيفة بالغة الأهمية، وهي التقاط براز الكلاب، أتوجد خدمة أكبر من هذه للبشرية؟ إنه يعفينا ذاك الواجب المقرف، ويرفعه عن كاهلنا، بواسطته يمكن لمروِّضي الكلاب حين يذهبون لتمشيتها أن يرتاحوا من عناء لفِّ خيط البراز الكريه -الذي تسحبه خلفها- على الوشيعة... أية وشيعة؟... إنه تعبير مجازي... لم تسمعوا به من قبل؟ بالطبع، فأنا ابتدعته الآن فقط، لا يحق لي أن أبتدع في اللغة؟ ومن وضع هذا القانون؟ اللغة ملك لمتحدِّثيها يضيفون إليها ما حلا لهم وراق وليست حكرًا على الأقدمين، لنرجع إلى اختراعي العبقري... أنا حين أخترع أضفي على اختراعاتي الطابع الفني، مثلًا، في حالة ملتقط براز الكلاب هذا جعلت له القدرة على محاكاة الصوت البشري وتركيب الجمل وبرمجته على التذمر والاشتكاء، كل يوم حين أُمشّي كلبي، يُهرع هو خلف ذيله يتبعه، حتى إذا طرح الأول فضلاته، التقطها الأول بذراعه الحديدية وألقاها في كيس وهو يقول في قرف: ((أيها الكلب اللعين... هيا، توقف عن التغوط بالفعل، ماذا أكلت بحق اللعنة؟ دائمًا تصاب

بالإسهال فأدفع أنا ضريبة ذلك، وما جريرتي أنا حتى أُعذّب بجحيم قاذوراتك هذه؟ أنت أشبه ببالوعة استحالت غيمة! غيمة لا تنفد أمطارها، وكلَّا، هذه ليست نعمة أبدًا. أيها الكلب اللعين، لو تغوطتَ ثانية سأتسلل إليك عن غفلة من مروِّضِك العالم "النابغة" وأخنقك بالوسادة حتى الموت، سأشويك حيًا وأطعمك للصينيين، أسمعت أيها الكلب الأصم؟)).

والكلب يردُّ عليه بسعادة ساذجة: ((هاو هاو)).

وأضحك أنا مقهقهًا في الشارع بشكل هستيري يجذب إليَّ أنظار الناس. هذا اختراعي الأول، وهو عظيم النفع كما ولا بُدَّ أنكم أدركتم.

اختراعي الثاني: ابتكاري هذا فيه فائدة أعظم من الأول، إنه برنامجٌ حاسوبيٌ أسميته "RLLG"يرسل يوميًا في الصباح ألف رسالة لألف فتاة عشوائيًا على الفيسبوك والإنستغرام والإيميل، جميعها رسائل حب مني وغزل تبدأ بـ:

((مرحبًا وأهلًا بشمسي المشرقة، أنرتِ يومي بطلعتكِ، لن تقدري أبدًا على استيعاب مدى عشقي لك، أحبك وأحب كل ما فيك، أحب أسنانك الصفراء النتنة، أحب شعرك شعر الساحرة الشمطاء العامر بالقمل، أحب عينيك الحولاوتين، أحب دماملك المتقرِّحة المتقيِّحة، أحب غباءك المطبق وكلامك السخيف، أحبك لأني أحب الدمامة والقبح في الفتيات، آمل أن تحظي بيوم جميل ورائع بعد سماعك لكلماتي، طاب صباحك)).

والآن تخيّل معي النظرة على أوجههن إذ تنقلب من الامتنان والأمل والخجل من الإطراء إلى السخط والخيبة والحنق على الهجاء، واضحك معي ملء فيك، ما أحلى التنمر.

الاختراع الثالث... توّقف عن اختراعاتك السخيفة العديمة الجدوى هذه، وعُد إلى القصة، كلا، يا نافذ الصبر، اختراعي الثالث هو أفضلهم جميعا، إنه عبارة عن روبوت سميته "PickleBot " وهو مصمّم على شكل ولون الخيار، أقصد الخضار الذي اسمه الخيار، وهو يتحرك بآلة تحكم، حبة خيار تتحرك، أخمّنت الغرض منها بعدُ؟... بالضبط، إثارة هلع القطط، أناول قططي غذائها في صحونها

حتى إذا اجتمعت كلها في مكان واحد أطلقته عليها، ينسلُّ بينها دون أن تشعر ثم يطلق صفيرًا فتلتفت إليه وتراه... ويا للمشهد الكوميدي المضحك الذي يبدأ بعد ذلك...

عشرات القطط تتواثب خوفًا معا، وترتطم ببعضها، وتتعثر، وتتخبط، وتلتفُّ ذيولها وتنعقد، حتى لا يكاد الواحد منها يعرف ذيله من ذيل أخيه، فيما أستلقي أنا في الركن على قفاي ممسكًا ببطني مقهقهًا حتى أكاد أختنق وأموت.

هذه بعض اختراعاتي التي كانت لتنقذ البشرية من بؤسها لو قَبِلَ أولئك المستثمرون الحمقى بإنتاجها وتوزيعها، هناك اختراع رابع ولكني أخبرك به لأنه خاص للعُزّاب، إنه يقدم لهم أكثر ما يحتاجون إليه... ما بال الفضول قد انتابك الآن بعد أن كنت ضجرًا من كلامي قبل برهة؟ حسنًا، حسنًا، سأفشي سره لك، إنه محرجٌ بعضَ الشيء... اختراعي الرابع هو روبوت أنثوي أسميته "ماري"، ما خطبك تنعتني بالفسوق والفجور يا سيء الظن؟ إنها جارية، ما زلت تلقي علي باللعنات والشتائم؟ إنها جارية تخدمني، تغسل لي ملابسي، وتطبخ لي طعامي، وتكنس لي الأرضية، ثم أطفئها في الليل ولا أشغلها حتى يبزغ الفجر، ما الذي قد أستخدمها فيه غير هذا؟

والآن، أنا على هذا الكوكب المجهول الذي لم يسبق لأحد استكشافه، أرتدي سترة -صممتها بنفسي- واقية وقابلة للجذب و... مهلًا... إنها تمطر حديدًا! حان وقت المظلّة المضادّة إذًا، هكذا لن أُصاب بزخَّات هذا المطر المعدني، والآن دعوكم من هذا الغيث العجيب، فهو شيء عاديٌّ روتينيٌّ لعالم ورائد فضاء بمثل معرفتي وتجربتي، في الزهرة تمطر حمض الكبريتيك، وعلى "تيتان"، أحد أقمار زحل تهطل أمطار من الهيدروكربون، لذا كما قلت لكم سلفًا، لا تبالوا بهذا المطر وأصغوا إليَّ إذ أصف لكم ما أراه أمامي...

أمامي تمتدُّ صحراء قاحلة... طبعًا، هناك صحراء في كوكب لا يُمطر سحابه ماء... حولي ترتفع كثبانٌ من الرمال في حجم أمواج طوفان نوح... إلى جانبها يوجد...

لا أحد... لا إنس، لا فضائي، لا حيوان ولا نبات على مرمى العين، إنها ليست خيبة أمل لي فأنا قد توقعتها.

خيبة الأمل الحقيقية أصابت الأمريكان، الذين أرسلوا صاروخًا إلى القمر، وكلهم أمل وتفاؤل ليقابلهم الأخير بوجه كئيبٍ ميتٍ، عرفوا أن القمر ليس مضيافًا ما إن نزل روادهم على سطحه، فهو لم يقدِّم لهم حتى شربة ماء، بخل لا مثيل له ولا نظير... قالوا في أنفسهم ببصيص الأمل المتبقي: ((مهلا، دعنا نرى إن كان هناك...))
لا فضائيين، لا نبات، ولا حتى ميكروبات، لا جاذبية، لا ألماس، لا شيء.

نطَّ بعض الرواد على القمر الخالي القاحل ببلاهة تجعل الجندب ذاته يتبرَّأ منهم، ثم شوَّهوا وجهه بعلمهم الأمريكي، وكأنهم يعلنون أنَّ هذه الأرض ملكهم قانونيًا، وكل من يأتي بعدهم غزاة مستعمرون مغتصبون، وأعلنوا في الأخبار أنها خطوة عظيمة هائلة تخطوها البشرية ونصر للإنسان...إلخ من الترهات التي لا يصدقونها هم أنفسهم، لا بُدَّ أنهم كانوا يندبون حظهم خلف الكواليس، يتحسّرون على مليارات الدولارات التي أنفقوها على رحلة لا طائل منها، لماذا برأيك لا يخططون للعودة إلى القمر أبدًا؟ لأنهم يعرفون ولا يعترفون بأنه أكبر مشروع فاشل وأسوأ صفقة عقدتها الولايات المتحدة الأمريكية منذ إعلان الاستقلال.

أما أنا فعلى النقيض لستُ خائبا على الإطلاق، فابتكارُ مركبتي لم يُكلِّفني الكثير لأني عبقري في الاقتصاد، ونابغة في الاختراع، لقد جمعتُ خصلتين يتمنى كل عالم أن ينالهما، وعلاوة على هذا، لقد توقَّعتُ الأسوأ، توقعتُ ألا تنجح تجربتي على الإطلاق، وتخذلني عبقريتي للمرة الأولى ولكني نجحتُ، انظروا لي إذ أتبختر وأتخايل فخرًا وغرورًا كالطاووس على هذه الأرض الغريبة التي هبطتُ عليها للتو، أجوب هذه الصحراء الباردة بخفة ورشاقة، وهذا لأن الجاذبية كما حدستُ مسبقًا ضعيفة ناقصة، بالمناسبة نسيتُ أن أذكر لكم تفصيلة صغيرة، أنا لا أرتدي خوذة فضاء، ولكني حي أتنفس، كيف؟ لقد بسطتُ مجال طاقة يحيطني كالفقاعة، تستطيع الأشياء أن تدخل إلى الفقاعة، ولكن شيئًا لن يخرج منها،

وهذا المجال يتحرك معي كلما تقدمتُ، لا، لن أشرح كيفية عملها كيلا يجفَّ ريقي عبثًا من كثرة الكلام و...

مهلا... هناك إشارة على جهاز الإرسال المتصل بالقمر الصناعي، لقد حددَّ شيئًا كبيرًا على الشمال يبعد عني بمئة متر وسنتمترين... إنه قريب للغاية، علي أن أصعد هذا الكثيب فقط و... خطوة... خطوتان..... ثلاثة...

...الخطوة الأخيرة إلى القمة وها هو ذا أسفل قدماي، إنه... مبنى يطفو، أقرب إلى خيمة ولكنه كاشف غير ساتر كما لو أنه غُلالة نوم رقيقة على جسم طفلة صغيرة، قلتُ "طفلة" بالتحديد كي تخجل من نفسك ولا تستغرق في تصوُّر مظهرها، لأنك لو فعلتَ فأنا أخشى أنك تشتهي الأطفال يا هذا... دعنا منك ولنعُد إلى ما أراه... هناك أضواءٌ تنير وتنطفئ بشكل متوالٍ... أضواء بألوان مختلفة... أزرق فاتح، بنفسجي غامق، أصفر فاقع، أبيض ساطع...

عبقريتي تُنبِؤني بأن هذا شكلٌ من اللغة أقرب إلى إشارة موريس، فَلْأقترب أكثر وأرى... أريد أن أعرف كيف تطفو هذه... يا للهول... هناك كائنات بالداخل، فضائيون، أنا لا أصدق عيناي، أين الكاميرا؟ أين هي؟ علي أن أسرع بالتقاط صورة العمر، صورة القرن، إنها فرصتي الذهبية، فرصتي الألماسية، أُنظروا إلى يداي تهتزان حول الكاميرا من فرط الحماس، علي أن أهدأ وألتقطها قبل أن يتواروا وأضيّع الفرصة... أحتاج صورة واحدة واضحة -علي أن أحرص على وضوحها- ستكون تذكرتي إلى العالمية، شهرة بلا حد، سيعترف العالم بي وبعبقريتي، وسيعرف جيراني... جيراني الملاعين الذين يحسبونني مجنونًا غريب أطوار، فقط لأني لا أمشط شعري، ولا أغسل أسناني، ولا أحلق لحيتي، ولا أغيّر ملابسي غير المتسقة أبدًا، أولئك الجيران الذين حكموا علي من خلال مظهري سيعرفون، وحين أُثري وتمتلئ جيوبي سأشتري خمس سيارات ولكني لن أستعمل واحدة منها، فقط لأثير غيظهم وأملأ أنفسهم غيرة وحسدًا، وأقتني ملابسًا باهظة الثمن أُلبس نصفها لكلابي، وأمنح نصفها الآخر للمتشردين والمخابيل، فيما أواصل أنا ارتداء البذلة الرمادية المتسخة ذاتها التي لا تتوافق مع السروال الأسود المُقطّع ذاته، حين أصير غنيًا سأفعل كل شيء ممكن لإثارة غيظهم وحنقهم، وسأجعلهم يندمون

ويتحسّرون على أنهم عيَّروني ولم يمدحوني، واستحقروني ولم يُعظِّموني، ذلك انتقامي الحلو الذي سأستمتع بلذته ما إن ألتقط... كليك، كليك، كليك...حسنًا، ثلاث صورٍ تُظهر المبنى الشبيه بالخيمة كأوضح ما يكون، وبداخله خمسة فضائيين متماثلين في الخِلقة، فَلْأذهب وأزرهم، ولأكن على استعداد للفرار ما إن يظهروا نوايا العداء.

أتمنى أن يكونوا عاقلين، أجل، هناك احتمالية أن يكونوا غير عاقلين، لا أحد يتصور هذا، كلما تحدَّث الناس عن الفضائيين تخيلوا الرؤوس الكبيرة، والأذرع والسيقان النحيلة، والعيون السوداء البيضاوية والبشرة الخضراء، كلما تحدثوا عنهم تصوروا أن بمقدورهم التفكير والكلام، وأن عندهم تكنولوجيا متطورة نظهر أمامها كبدائيين ينقشون على جدران كهف، وهذا هو الافتراض الخاطئ الذي غرسته فيهم الأفلام، فماذا لو كان الفضائيون مثل الحيوانات على هذه الأرض لا تعقل ولا تنطق؟ ماذا لو كانت لا تُشبه أيَّ كائن يعيش على الأرض؟ ماذا لو كان لها شكل فريد، ولون جديد، وأعضاء غير معروفة وطريقة تنقل غير مسبوقة؟ ستكون حينها غير قابلة للتصور لأن خيالنا لا يأتي بصور جديدة من العدم، بل يمزج أشياء سبق لنا رؤيتها ليشكِّل منها أشياء أخرى... المهم، أنا على عتبة هذا البناء الطافي الشفاف، سأقفز وأدخل... وها أنا ذا في الداخل، الفضائيون أمامي، أتعرفون فرط الحماسة والإثارة التي تسري في عروقي الآن؟ سأحاول أن أصفهم (الفضائيون) لك...

تخيل نصف رأس ديك تحته علبة ثقاب كل أعوادها مشتعلة، إلى جانبها قارورة شامبو مفتوحة تنهمر منها دفقات من مادة لزجة ثخينة، تحت قارورة الشامبو هناك رضيع له ألف عين وردية صغيرة، هذه العيون تنقلب جفونها حين تنفتح فيظهر لونها الوردي المقزز كلون الدود وصغار الفئران، تنفتح وتنغلق بلا انتظام ولا انسجام، تحت هذا الرضيع يوجد شعر امرأة أشقر طويل يغطي على أربعة أعضاء أخرى لا أستطيع تبيُّنها، تحت ذاك يوجد خاتم عملاق ومغطس وكراسة، تحت هذا هناك فيل يقف على خرطومه، فيل أحمر كالدم، ناباه سوداوان كالفحم، تحت هذا توجد كرة كبيرة للغاية لونها رمادي فاتح، وتحت هذا توجد...

الأرضية... أظننتني سأستمر إلى ما لا نهاية؟ والآن دعني أخبرك أنك لو كنت واقفا جواري هنا، لأعطيت لهم وصفًا مخالفًا تمامًا، ليس لأني كذبت عليك في وصفي بل لأن هذا الشيء غريب عجيب شاذ عن المألوف، لذا تحاول عقولنا حين نراه أن تقارنه بالأشياء المعتادة، كلُّ الفضائيين هنا لهم ذات المظهر، ولكن بأحجام مختلفة، دعني الآن أقترب من أحدهم بحذر وبطء، الخوف من المجهول يملأ نفسي ويغرقها كالماء للتيتانيك، ها أنا أقف على بعد مترين منه وأقول: ((هاي... صباح الخير)).
أعرف أنه لن يفهم كلامي فأنا لست بأحمق، ولكن الفضول يراودني حول طريقة تواصله، يلتفت رأس الرضيع ذي الألف عين -التي تنغلق وتنفتح ثلاثين مرة في الدقيقة- إلي و...

يبصق عليَّ، ما هذه الإهانة؟ إنها الحرب إذًا، لقد اخترتموها فلا تلومُنَّ إلا أنفسكم، مهلًا... لقد قذف إليَّ بشيء، إنها نجمة ثُمانية، على كل رأس من رؤوسها هناك وجهٌ يطفو... وجهٌ ملموس... وجهٌ لبشريٍ، وجهٌ منحوتٌ ومدهونٌ بدقة وواقعية من شدتها تكاد تخاله سينطق.

يُصدر الفضائيُ صوتًا من قارورة الشامبو، صوتًا خليطًا من زقزقة العصفور، وزئير الليث، ونعيق الغراب، وصراخ البانشي، وفرملة السيارات، وتصادم القطارات، وضحكات فتيات ماجنات، وصيحات الفتيات أنفسهن وخلفهن قاتلٌ مجنونٌ يركض وفي يديه منشارٌ كهربائيٌ صارخًا: ((قلتُ لكُنَّ أن لا تضحكن!)).

كيف تجتمع كل هذه الأصوات المتنافرة معًا لتخلق مثل هذا الصوت الغريب؟ لا تسألني فأنا مثلك لا أعرف، أمسُّ بأصبعي وجهًا من الوجوه على النجمة، وجه لحسناء في العشرينات، صهباء شعرها حريري يجري شلالًا برتقاليًا ناعمًا على ظهرها -الذي لا يظهر- ، خضراء العينين، شفتاها حمراوان كالفراولة -ماكياج-، إلى جانب عينها اليمنى يوجد خالٌ يضيف إلى ولا ينقص من سحر عينيها، غمّازتان خجلوان يتفنَّن المرء في إضحاك حاملتهما حتى تتبدّيا له، بشرةٌ بيضاءٌ لدرجة تجعل الحليب ذاته يبدو قهوة، ذقنٌ ناعمةٌ تذوب حلاوة بين أصابعك، لو كان السحر والجمال والفتنة أشجارًا لكان هذا الوجه الخلّاب فاكهتها.

اختفت النجمة ومعها الأوجه فأحسستُ بشيء من الحسرة، قبل أن يظهر أمامي لوهلة طبقٌ فِضيٌّ سابحٌ في الهواء، فجأة دلف ثلاثة فضائيين فالتفت رأس الرضيع عني وبصق لهم ثلاث نجمات، سرعان ما اختاروا الوجوه، طفلٌ أسمرٌ، عجوزٌ في أرذل العمر، رجلٌ صينيٌ بدينٌ، فظهرت أمامهم الأطباق الفضية مختلفة الأحجام، كلها تتماثل في شيء واحد وهو...
أن لها ذات شكل التابوت.

انحنى الفضائيون على أطباقهم، ودسُّوا رأس الرضيع الخاص بكل واحد منهم في ثقبٍ وسط أطباقهم، ما الذي يفعلونه؟ ما تفسير كل هذا؟ لماذا ينتابني هذا الهاجس المخيف بأن هناك شيئًا منكرًا بشعًا فظيعًا يحدُث...

النجمة، الوجوه، الطبق، أنا لا أفهم، مهلًا، دعني أرفع الغطاء عن طبقي وأرى، مُدَّ يدك وأعنِّي على إزالة الغطاء الكبير عنه و... يا للهول، ما هذا بحق اللعنة؟

كانت هناك، مستلقية بملابسها الضيقة التي تفضح مفاتنها، كانت شهيَّة حقا، شهية الرائحة، وهذا ما دفعني إلى التقيؤ، لأنها كانت مشويَّة، وجهها محمَّر حمرة الدجاج المشويّ، جلدها يسيل بالدهن والمرق، رائحتها التي اقتحمت أنفي عنوة فأسالت لعابي، هذا ما جعل معدتي تتقلَّب ودفعني إلى القيء ثانية...

هذا مطعم، النجمة قائمة أطباقٍ، وهؤلاء الفضائيون أكلة بشر. هذه هي الحقائق الثلاثة التي انطلقت كالقذائف لتهدم سدَّ الخوف في نفسي ليغرق سيله العارم كل شيء.

ولكن، لماذا لم يصطادوني حين دخلتُ؟ لا بُدَّ أنهم عميانٌ فلو تفطنوا لي لذبحوني، لا، يا سادة، أنا عبقري، لقد جهزت سترة الإرجاع لمثل حالات الطوارئ هذه و... إنها لا تعمل! لماذا بحق الجحيم لا تعمل؟! لقد جربتها، مئة مرة جربتها قبل أن أنطلق فكيف تخذلني هنا وفي أحرج اللحظات؟

يا إلهي، أنقذني، أنجدني، أخرجني من هذا المأزق. سأخرج، سأهرب، سأعود على قدماي فمركبتي قريبة، أخطو ناحية الباب فيثب الفضائي ليعترض طريقي، يتمتم بشيء لا داعي لترجمته فأنا أعي ما يقول: ((لم تأكل طبقك)).

ماذا أفعل؟ هل أنقضُّ عليه؟ إنه يصطاد البشر كما نصيد نحن السمك، ويذبحهم كما ننحر الغنم، ويشويهم كما نشوي الدجاج، لا بُدَّ أنه سيهزمني ويقتلني في أقل من أربع ثوانٍ، ثم إن هناك رفاقه، فحتى لو تغلّبت عليه سيتكالب عليَّ أصحابه كما تفعل الذئاب حين تصيد الأيائل والثيران البرية، ماذا أفعل إذًا؟ لم يبقَ لي سوى خيارٌ واحدٌ، عليكم أن تنصتوا إلي، أنا لا أرغب في فعلها، أنا لستُ مثل ذاك الياباني المجنون الذي التهم حبيبته[4]، ولكني مضطرٌ، سأنجو، سأفعل أي شيء لأبقى على قيد الحياة، لا أتحمّل فكرة أن أصير وجبة أخرى يتناولها هؤلاء الفضائيون، ولهذا سأفعلها... ألتفت إلى طبقي وأنظر إلى طعامي، وأشرع في تناول غدائي كفتى مؤدب، أخلع ملابسها التي تُغلِّفُها قطعة قطعة كما تنزع أنت غلاف النيلون من على طبقك، الجوارب، ثم القفازات، ثم الوشاح، ثم القبعة، ثم السترة ثم... لعابي يسيل، عليه اللعنة، علي اللعنة، عليهم اللعنة، ماذا أفعل؟ هل أنا حقًا موشكٌ على التهام الفتاة التي خلبني جمالها قبل برهة؟ أسآكل حقًا من كنت لأتخذ حبيبة وزوجة في المستقبل؟ أسأزدرد وجه توأم مارلين مونرو؟ أسأفعلها حقا؟

أكشف عن لحمها الغضِّ الطري كلحم الظبي، الأسود العجوزة تصطاد البشر في دولةٍ جنوب أفريقيا لأن أسنانها ضعفت وأضحت غير قادرة على تمزيق لحم الجواميس، لماذا أتذكر هذا الآن؟ يهدر الفضائي فيَّ أن "كُل"...

شفتاها حلوتان حقًا، وهذا يجعلني أدمع، عيناها لذيذتان، وهذا يجعلني أنشج، فخذها شهيٌ، وهذا يجعلني أنتحب، صدرها يجعلني أنوح وأتقيأ و... أسمع ضحكًا شيطانيًا فجأة، ويلتفُّ حولي الفضائيون في حلقة، ويهتفون فيَّ بأصواتهم...

لا أحتاج ترجمة، إنهم يصرخون بي أن آكل بنهمٍ أكبرٍ، لقد كنتُ مخطئًا، فهم ليسوا عميانًا، كيف يكون لمخلوق ألف عين ويكون أعمى؟ لا بُدَّ أنهم يعرفون أني بشريٌ، لا بُدَّ أنهم يستمتعون بمشاهدتي ألتهم بني جنسي، أهذا كابوس أم قصة رعب أم فيديو على الأنترنت المظلم؟... أتوقف، كلا، لن آكل المزيد، فليقتلوني إن

[4] اسم الياباني هو Issei Sagawa.

شاؤوا، لا أستطيع أن أحتمل أكثر و... إنهم يهاجمونني، لقد وثبوا علي وطرحوني أرضًا، ثم أفرغوا الطبق عليَّ، وجلس أحدهم فوقي... إنه يدسُّ الطعام في فاهي، يعتصر ذراعي بخرطوم الفيل القرمزي حتى يكسرها فأطلق صرخة ألم عالية، وحين أصيح يأخذ هو ملء يده لحمًا، ويغوص بها في فمي حتى يسقطها في حلقي...

كُلْ أيها الولد الشقي، كُلْ، إنه طعامٌ شهيٌ، فما خطبك ممتعضٌ هكذا؟ أَنهِ طبقك أيها المدلل...

وبينما يمضي شريط حياتي أمام عيناي مستبقًا بيَ الموت، تطفر دمعتان وتنسابان على خدّاي، دمعتان فيهما كل ما قاسيته في حياتي من وحشة وعانيتُه من وحدة، أهكذا سأموت وحيدًا على كوكب قصيٍ في زمن سحيق، حيث لا يدري بموتي أحد؟ أهكذا سأموت وأنا ما زلتُ لم أشتهر وأُثري وأفرض وجودي في العالم؟ أهكذا سأموت دون أقارب يدفنوني أو زوجة ترثيني أو أبناء يحزنون علي؟ آه، يا ليتني لم أنفِّر الناس عني بغروري وتكبُّري، لقد كنت نرجسيًّا متعجرفًا متبجِّحًا لعينًا، أتفاخر بعلمي الواسع، وأحتقر الناس وأستصغرهم لجهلهم، ولكن تبيّن أني مثلهم أخطئ وأجهل وإلا فلماذا لم تعمل السترة؟ ماذا حقّقتُ من علمي سوى رحلة إلى قبري، آه، يا ليتني صادقتُ جيراني، ليتني طلبتُ يد جارتي العنساء التي كنت أزدريها لقلة علمها ونقص عقلها، لم أشعر بدفء الحنان والحب طيلة حياتي، ظللت بين المعادلات الجامدة والروبوتات الباردة أعزِّي نفسي بأني سأخلد بابتكاراتي في التاريخ، وأسخر من بؤسي كي أهوِّنَ من أمره، فما تلك الاختراعات السخيفة إلا محاولة لإدخال الفرحة والبهجة في قلبي، ولكني والحق يُقال لم أشعر بأية سعادة رغم كل ما أنجزت، وهذه لحظة فنائي قد أزفت ودنت حتى صرتُ أرى ثقب المفتاح في مقبض ذلك الباب، إنه مفتوح على مصراعه، وخلفه ترتقبني ظلمة دامسة باردة.

أسمع ضحكاتهم الصاخبة المتواصلة، وأراهم يهتزّون ويتراقصون وكأنما من اللذة والنشوة، أرى أعين رُضّعهم تتّسع عن آخرها، واللعاب يسيل من أفواهها مهراقا.

آععع، إنها الجحيم، إنهم الشياطين، إنها نهايتي.

قاطع رحم (الكبرى)

تململ أحمد بودراع معدلًا من جلسته، وهو يسترق النظر إلى وجه ابن خالته محمد الجالس قبالته على السرير، كان يختطف نظراته ويولي بها مذعورًا ما إن يلتفت هذا الأخير ناحيته، فقد كان يتلافى أن تتلاقى نظراته مع أحد من أقربائه، لرهبة شديدة تسيطر عليه من ذلك، كما لو أنه سيُصاب بالعمى لو التقت نظراتهما، سدّد عينيه الآن تجاه أخواله وأبنائهم وأبناء خالاته وأزواجهن، وتأملهم إذ يتجاذبون أطراف الحديث والسمر حتى يكادون يمزقون أطرافه بينهم.

يتضاحكون ويتجادلون، مسترجعين الماضي الحلو، متبرِّمين من الحاضر المرير، فيما أحمد قابعٌ لوحده هناك، أخرسٌ صموتٌ كصنم يدعوه مشرك، أو كمريم العذراء إذ يتهمها اليهود. لا يُنظرُ إليه ولا يُلتفت، ولا يستغربُ سكوته أو يستنكره منهم أحد، فهم قد ألِفوه وعهِدوه على ذلك الحال.

اللعنة، لماذا أنا عاجزٌ عن التحدث معهم؟... لماذا؟ أليس لدي لسان؟... بلى... أأنا أبكم؟ لا... إذًا، لِمَ لا أستطيع نطق كلمة لعينة؟... واحدة فقط....

راحت هذه الأسئلة تحوم حول عقله، وتنهم منه الخبز، كما أكلت على رأس صاحب يوسف عليه السلام قبله، فيما هو موثق إلى صليب الصمت بعقدة لسانه، لا، بل ومشنوق بأنشوطتها، لا يسعه فعل شيء إلا مداراة الأسى والحسرة بقناع ابتسامة يلصقه على شفتيه ليُبدي لهم أنه سعيدٌ فرحٌ هانئ البال، ويستر عليهم شقاءه وبؤسه.

كانوا جلوسًا في الصالون متقابلين على الأسِرّة، على وسائدها متكئين، والأطفال حول أقدامهم يلهون ويمرحون على البساط، حين وُضعت صينية الشاي وعليها طبقٌ من الكعك بمختلف ألوانه وأشكاله، فتناقلت الطبق أيديهم لينتقي كل واحدٍ ما يشتهي منها، إلى أن بلغ الصحن صاحبنا فمرَّره مباشرة إلى زوج خالته

حبيب الجالس جواره، لم يفُت ذلك خاله عبد الله إذ أسرع يقول: ((ألا تأكل الكعك يا أحمد؟)).

أجاب رافعًا ناظره إلى السائل وخافضًا بعد لحظة: ((بلى، فأنا لا أحب الشيكولاطة، ولا العجينة المشكل بها)).

أطلق عبد الله ضحكة قصيرة وقال: ((وماذا عن البقلاوة؟)).

فردَّ أحمد مبتسمًا في خجل لا داعٍ له: ((ذلك هو الاستثناء)).

فانصرف عنه خاله بعدها، وعاد إلى الحديث مع زوج أخته محفوظ، فيما فكّر أحمد: ذات السؤال الذي ألقاه علي في مناسبتين أخريين، إنه لا يعرف عني إلا ذوقي في الكعك.

قال المحامي داخله مدافعًا عن خاله: ((إنه يحاول على الأقل التواصل معك بشكل أو بآخر، أما أنت فلا يسمع منك إلا السلام والوداع و' كيف حالك؟' الزائفة التي لا تأبه حقًا لجوابها، ثم ماذا تتوقع منه أن يعرف عنك وأنت لم تعرِّف نفسك؟ أتخاله قارئا للأفكار؟ وهذا ينطبق على سائر أقاربك، ذكِّرني ماذا قالت أستاذة الفلسفة البلهاء تلك مقتبسة أرسطو : 'تكلم أعرفك'، لا، لقد أخطأت، الاقتباس الصحيح هو 'تكلم لأراك'، عليهم أن ينشروا هذه الحكمة إلى جوار صورتك)).

فأجابه أحمد: ((أوه، لكم أكره الاعتراف بهذا ولكنك محق)).

ثم أخرج رأسه مجددًا من قوقعة السلحفاة التي يلوذ بها كل حين، وتابع الأخوال وأزواج الخالات إذ يتقايضون الأطفال للحضن والعناق، تساءل سِرًّا: ((ما سر هوس الرجال بالصغار؟ إنه لا يحمل تجاههم إلا الفضول والعجب من السذاجة والعفوية التي يتصرفون بها، مهلًا، أنا لا أحب الأطفال! أهذا برهانٌ آخر على أن قلبي مات؟))، سأل أحمد نفسه والكآبة تغشو محيّاه، ثم أردف هامسًا، وقد كاد يفلت ضحكة حزينة: ((ومتى كان قلبي حيًّا أصلًا ليموت؟)).

سأله عبد اللطيف ابن خاله يوسف: ((ماذا قلت؟)).

أسرع يجيب: ((لا شيء... أنا أُكَلِّمُ نفسي)).

فرمقه بنظرة الريبة والدهش التي يعرف فحواها حق المعرفة "أأنت معتوه؟" ثم قال فجأة وقد تذكر شيئا: ((آه، لقد تذكرت، هاك))، ومدَّ يده له بخمسمئة دينار، مفسِّرًا: ((إنها من خالي إلياس، زكاة الفطر)).

تناولها ودسّها في جيبه وهو ينظر إلى إلياس خفية، أصغر أخواله سِنًّا وأضخمهم جثة، والذي سمع من أمه بمواقفه الجريئة البطولية، أما هو فيذكر ولعَه بالمفرقعات في المولد النبوي، وتوعُّدَه غليظ اللهجة له ولغيره من أبناء إخوته بالضرب المبرح، إن تخلّف عن صلوات التراويح في رمضان، أو صلاة المئة ركعة ليلة عاشوراء، هذا بالإضافة لركلة سدّدها إلى ردفه جعله بها يحلق طائرًا لثوانٍ (عبّاس بن...) قبل أن يهوي بعدها (فرناس!) ليعرُج هاربًا متفاديًا ركلة أخرى قد تكسر حوضه، يا لذكريات الطفولة الحلوة الـ -سّعيد- ة! أما ما بلغه عنه مؤخرًا فهو أنه عالق كالأغلبية في حفرة الفاقة لفقر الضيقة، وأنه الآن يضرب في الأرض علّه يصيب شيئًا من الرزق في مكان آخر غير مسقط رأسه الذي ضنّ عليه.

لماذا أخرج الزكاة إذًا؟ ولماذا منحها له هو بالذات؟ لماذا قدّم له هذه النقود التي قام يعمل لأجلها في نهارات الصيف القائظة، تحت سياط الشمس اللافحة، والعرق على جبينه إكليل كالندى على الورق، والخدوش والجروح والقروح طروز على جلد كفه الخشن و... "كفٌّ لا تمسُّها النار".

لماذا قدّمها لدنيء خسيس مثله؟ حقير لا يذهب لمواليد أخواله في يوم ختانهم، ليستقبلهم بعد أن تدفع بهم اليد الربانية بلطفها من رحم العدم إلى عالم الوجود، ليملؤوا الدنيا بكاءً وصراخًا معلنين "أنا أبكي، إذًا أنا موجود"، ولم لا يذهب؟

فقط لأنه يكره أن يأكل البيض المسلوق وحده دون خبز، أسخف عذر تعلّل به غائب في التاريخ.

ولا يزور أعمامه ليطمئن على أحوالهم، ولا يتكلم مع أغلب أقرانه من أبناء أخواله وخالاته وأبناء أعمامه وعماته، لا يمازحهم، لا يناقشهم، لا يلاعبهم، ولا يتشاجر معهم، لا يسخر منهم، ولا يطري عليهم، لا يسأل عن أخبارهم، عن انشغالاتهم،

عن آرائهم، عن اهتماماتهم، باختصار، يعاملهم معاملة الأغراب، كلا، بل أسوأ من ذلك، كما لو أنهم أحجار أو أشجار ليس لها خواطر أو مشاعر. تبًا له من منزوٍ منطوٍ منغلقٍ متقوقعٍ على نفسه.

ولكنهم أيضًا لا يبادلونه الكلام، ولا يحادثونه، اللهم إلا في عبارات مقتضبة، وبنبرة باردة جافة فهي قطيعة متبادلة، ولكن من بدأها؟ متى أُعلنت؟ مَنْ نصب خِيام الصمت هذه، خيام مُناصبة العداء؟ من خطَّ حروف الجفاء على صحيفة التجاهل وشمّعها بختمه ثم علّقها في عُقر الدار؟ لا بُدَّ أنه هو، بإدراكه أو بدونه.

دائمًا في الليالي الباردة حين يعود إلى منزله، ويفتح بوابات عقله على مصاريعها، ويترك للخواطر العابرة والأفكار المقيمة والذكريات الآيبة أن تسيح وتسرح كما تشاء، دائمًا حين يفعل ذلك يكِرُّ له هذا السؤال: ((من بدأها؟))، فيرميهم بأصابع اللوم: ((هم، هم من لا يزورونني، هم من لا يكترثون لي، هم من يعرفون بخجلي الذي يكمِّمُ فمي، وتلعثمي الذي يُلجِّمُ لساني، ويأبون مع ذلك أن يأخذوا بيدي ويبادروني بالكلام)).

ولكن أصابع الاتهام سرعان ما تنقلب مرتدة عنهم إليه:((أنت، أنت من لا تحاول حلَّ عقدة لسانك هذه، كيف ستصير متحدثًا لبقًا سريع البديهة ذا ردود لحظية ذكية إن لم تفتح فاك وتلغو؟ أكنت لتتعلم الرسم لو لم ترفع الريشة؟ أكنت لتتعلم سياقة الدراجة لو لم تركب؟ أكنت لتتعلم السباحة لو لم تغطس؟ أتظن أن الناس لديهم متسع من وقت ليساعدوك على حل مشاكلك؟ بالكاد يجدون الوقت الكافي لقضاء احتياجاتهم وأداء التزاماتهم، فكيف يفرغون لشخص مثلك؟)).

يخبره بهذا المحامي في عقله فيعترف له مجددا وهو يتنهد: ((آه، تبًا، أنت دائمًا محق)).

وبينما هو في مجلسه على السرير يشتم لسانه ويلعن نفسه، صَحِبَه ضميره -لا، ليس صَحِبَه بل سَحَبَه- الذي كان يتجهّزُ له بشحذِ أدوات تعذيبه وتزييت آلاته، سحبه خلفه بسلسلة متصلة بطوق محيط بعنقه ليتعثّر خلفه عبر فراش متوهّج من الجمر المتَّقد، وراح يشدُّ عليها فجأة بين الفينة والأخرى ليهوي صاحبنا في

الجمر على وجهه، سحبه ضميره خائضًا عبر النفق المغشيَّ الملجّى بالظلمات المتراكمة المتكدسة بعضها فوق بعض، إلى شعاع من نور ينبثق من أيام طفولته، الماضي المشرق...

(س) كانت أنسام الليل المنعشة تدغدغ قسمات وجهه، وتعبث بخصلات شعره، كان يقود دراجة هوائية للمرة الأولى، يقودها عبر الزقاق الضيق الطويل الذي يُفضي إلى منزل جدته، وإلى جواره من؟... ابن خالته محمد، كان يقول له: ((انظر إلى الأمام، وليس للأرض، أحسنت، هكذا، ولا تتوقف أبدًا عن تحريك الدواسات، ها أنت تفعلها، أرأيت؟ قلت لك أنك قادر)).
قالها محمد -الذي يكبره سِنًّا بسنوات ليس واثقًا من عددها إلى الآن- ثم سكت وراح يمشي إلى جانبه يتبعه، وهو متجهز للإمساك به متى ما اختل توازنه لألّا يسقط.

فيما كان أحمد يسوق تلك الدراجة التي يتسلقها تسلُّقًا، وقد استغرق في لحظة من السكينة والراحة العارمة وشرد ذهنه لثوان، وأخذ النعاس اللذيذ يربِّتُ على جفنيه كالأم تربِّتُ على ظهر ابنها المستلقي في مهده وتهوِّدُ له لينام، حتى كادت تأخذه غفوة، للحظة غاب عن إدراكه كل شيء موجود ما عدا الليل وأنفاسه الباردة التي يُرسل بها لوجهه، حين استسلم للشرود والسهام، شعر كما لو أن جميع همومه رملٌ، أخذه في قبضة واحدة ثم أرخى مفلتا لتذرُوَ غباره الريح، شكَّ أنه يحلُم؟ أهو حقًا يقود دراجة كبيرة ذات عجلتين تتأرجح ساقاه القصيرتان منها فلا تلامسان الأرض، أحقًا يقودها بنفسه دون مساعدة أحد؟ إنه حلمٌ... حلم تحقّقَ.

أخيرًا بعد عدد لا يحصى من السقطات والخبطات التي أنقذه من أكثرها محمد، أخيرًا استطاع أن يقود دراجة هوائية ذات عجلتين لوحده، عاد له تركيزه لوهلة بعد شرود، كما لو كان طيّارًا بدَّل السائق الأوتوماتيكي بالسياقة اليدوية، فانتابه الذعر، واختلَّ توازنه، وترنّحت الدرّاجة تحته، فصاح هلعًا، ليتلقّفه محمد بين الهواء والأرض.

(ش) كشفت الشمس التي كانت تطِلُّ على استحياء عن وجهها، وأمطرت الموجودات، بشرًا، نباتًا، حيوانًا وجمادًا بأشعتها الدافئة، كانت هذه إشارتها للناس أن طلع الصباح فانتشروا في الأرض واسعوا في مناكبها، أما أحمد فكان في الطريق إلى المدرسة بالفعل، يمشي الهوينى، شاردًا ساهمًا يمرُّ على الأماكن المعتادة مثل خلفية فيلم أُعيد استعمالها حتى فقدت لونها، مركز الشرطة الذي يدنو منه الشُّبّان الطائشون بدراجاتهم النارية المزمجرة حتى إذا كادوا يبلغون الحواجز، والشرطي قاطع الطريق الذي يعلم علم اليقين أنهم يسوقونها بلا رُخَصٍ، ضحكوا في وجهه وأداروا مقاوِدها لينطلقوا عبر زقاقٍ جانبيٍ مختصرٍ يتجاوز بهم المركز، فيغلي الشرطي غضبًا ويطلق شتيمة صامتة، ثكنة الجنود التي لا يعرف دورها في المدينة تحديدًا، كل ما لاحظه فيها أشجار الصنوبر التي تشرئب بأغصانها فوق الحيطان، والجندي الذي يمشِّي كلبه ليلًا، وحاوية القمامة الخضراء المقرفة الرائحة الملقى فيها كراتين البيض المليء بيضًا، بعضها مهشم، وبعضها ما يزال سليمًا، ينظر لها ممتعضًا ويقول في سره: ((المسرفون الملاعين، الفقراء المساكين يتضوَّرون جوعًا، وهم يُطعمون حاويات القمامة)).

يلي الثكنة الطريق الواسع الذي يحوي على جوانبه مسجدًا كبيرًا ومحالًا صغيرة لا تبين ولا تظهر أمام السوبرماركت الفخم، هذا بالإضافة إلى بالوعة طافحة تطفو الفضلات على سطح مياهها العكرة، وبضع حفر يتعثر فيها المارَّة وترتجُّ فوقها السيارات، يلي الطريق محطة انتظار الحافلات، ثم رصيفٌ لا يوجد أعلى منه.

يخطو عليه أحمد مطرقًا رأسه، وهو يبصر الرخام الأحمر والأبيض، وقدماه تتقدمان عليه واطئتين ولا يعي من ذاك شيئًا، فعقله يقود مركبة فضائية ويجوب أكوان الخيال اللامتناهية، وفيما هو على هذه الحال إذا به يُقذَفُ جانبًا ليطير ويحطَّ على قدميه بلطفٍ من الله ومنة، فيلتفت مرتبكًا غير فاهمٍ ليرى محمدًا يتبسّم عابرًا في الاتجاه المعاكس له مواصلًا سيره إلى ثانويته، شامخًا بأنفه، متبخترًا في مشيته، كما لو أنه يملك مفاتح قارون، استغرق أحمد بضع لحظات ليستوعب..

لقد دفعني، ابن خالتي هو من قذف بي، أماطني عن طريقه كما لو أني حصاة، عثرة في سبيله، الـ... الـ... الوغد اللعين، سحقًا له، تبًا له، عليه اللعنة... لم تبرح الصرخة الحانقة حلقه، فهو جبانٌ ويخشى قبضة محمد القاسية، وكمّاشة ذراعيه المفتولتين حين تطوقان عنقه، وتضيقان عليه عاصرتان كالأصلة، قاطعتان نفسه، محطمتان رقبته، تابع سيره وهو يتساءل في سره: ((ما خطبه؟ أيحسبني ذبابة يطردها بالمِنَشّة[5]؟ صرصورا يهوي عليه بالشبشب[6]؟ أهكذا يراني؟ حشرة حقيرة مثيرة للشفقة، كلامها طنين تتقيؤه الأذن امتعاضًا، ومنظرها دمامة دنسة تغتسل لرؤيتها العين. عليه اللعنة إذًا، وعليَّ أيضًا إن تكلمت معه بعد اليوم، لن أحدثه حتى يأتيني مطأطأ الرأس مجرجرًا ساقيه يتوسّل الصفح)).

ولم يأت له محمد أبدًا، وما زال الوِصال مقطوعا بينهما منذ ذاك، وربما سيظل هكذا حتى تبلعهما الأرض، ويلعق عظمهما الدود.

(س) ((هلُمَّ، اطرق))، يقولها عبد اللطيف حاثًّا، وهو يبتسم تلك الابتسامة المعوجة، فيقرُع أحمد الباب الذي شكلّته يدا عبد اللطيف اللتين شابكهما معًا، وكلُّه فضولٌ لمعرفة السر الذي يختبئ خلفه، يفتح عبد اللطيف الباب، ويقول: ((الآن، خذ المقص)).

فيتناول أحمد مقصًا شبحيًا لا يراه سواهما، ويفتحه، فيردف عبد اللطيف: ((اقطع به أذنيك)).

فيفعلها فورًا، والابتسامة على شفتيه تتسع أكثر، يقول له لطيف: ((والآن ضع المقص هنا)).

فيعيده أحمد حيث أخذه، فيسأله لطيف: ((كيف سمعتني دون أذنين؟)).

فيغرق أحمد في الضحك، وسرعان ما رافقت ضحكاته قهقهة رفيقه.

- ((هلم، اطرق الباب. خذ القلم، ووقِّع هنا على هذا العقد... أفعلت؟ دعني أرى، حسنا، مباركٌ عليك الزواج هاها)).

---

[5] مِنْفَضَة لطرد الذباب. [ويكيبيديا]

[6] الحذاء الخفيف الذي يُبلس في البيت، أو ما يسمى أيضًا بالنعل.

- ((هلم، اطرق الباب...)) وتنفرج الأصابع، لينفتح الصندوق، ويكشف عن مفاجأة أخرى.

(س) يتشاجر أحمد مع يحي ابن خاله إلياس الذي يصغره بشهرين، من أجل لعبة سيارة ضخمة -تمشي بجهاز التحكم- ويكيل بعضهما لبعض اللكمات والركلات، ثم يحاول كل منهما طرح خصمه أرضًا، وتتشابك قدماهما في سعيهما لذلك، فينطرحان معا، ويخمشان، ويعضان، كزوج من القطط تشتبك في الأزقة، وما أسرع ما تلحظهما إحدى الخالات، فتندفع نحوهما مفرِّقة، وتفصل بينهما بصعوبة، وتبسط ذراعيها على أقصاهما وهي مطبقة على تلابيب قميصيهما، واحد على اليمين، والآخر على الشِّمال، وكلاهما يلُفّان حولها محاولين التملص من قبضتها المُحكمة واختلاس لكمة أو ركلة أخرى، والدموع قد طفحت على أعينهما وكادت تفيض، والخدوش قد انتشرت على أذرعهما وكادت تسيل، فيما هي تصيح فيهما: ((هيا، توقفا حالًا، توقفا حالًا)).

أخيرا بمعجزة تفضُّ بينهما، فينفضُّوا من حولها، وينزوي كل منهما بركنه وألعابه، وبعد خمس دقائق أو أقل، يضجر يحي من اللعب وحده، ويشعر بشيء من الذنب لأنه هو بدأ بالشجار، فيقول لأحمد: ((سامحني)).
أحمد لا يرد.
- ((هيا، نتصالح)). أحمد يواصل تجاهله.

- ((حسنا، إذًا، أترى يدي؟))، ويفتحها ويمدها ليحي، ((إنها مفتوحة، إن لم تمُدَّ يدك وتصالحني قبل أن أغلقها فستذهب لجهنم"، وينظر إليه، فيجد أن الأخير لا يلقي له أو لوعيده بالا، ويرمقه إذ يجلس هناك متربعًا يسحب بين يديه سيارة حمراء صغيرة يقودها بعشوائية في كلِّ صوب، وشفتاه تحاكيان المحرك إذ يزأر، فيحسُّ أحمد -ولا يفكر- بأن عليه أن يضع له أجلًا، فالناس لا تهرع بالحراك إلا إن كانت مقصلة ضيق الوقت على رؤوسهم، ويأخذ بثني أصابعه رويدًا رويدًا، وهو يردد: ((يدي تنغلق، انظر إليها، إنها تنغلق، ستذهب لجهنم، هيا، أسرع بمسامحتي قبل أن أُطبقها)).

(س) ((عناكب... عناكب ضخمة أقول لك، بهذا الحجم))، يبوح له ابن عمه سليمان وكله حماسٌ وإثارةٌ، ويبسط ذراعيه على جنبيه ليقرِّبَ له حجمها الهائل فيتصور أحمد رتيلات مشعرّة تداني كلاب الدوبرمان إن لم تفُقها حجما، تركض بين الأروقة وتخطو على الجدران، وتسري في جسمه رعدة، يردِفُ سليمان مبتسمًا وهو يلحظ هذه الاستجابة القوية لكلماته: ((ليس هذا فقط فنحن نجد أحيانًا أخرى في منزلنا بالعاصمة جرذانًا كالخيول، وعقاربًا كالبغال، وأفاعٍ كالحيتان)).

وسرعان ما يعدو كل هذا في سهول خيال أحمد الطفل ذي السنين الست، جرذانٌ تمشي منتصبة على قدميها وهي تدفع أمامها عجلات من الجبن الأصفر، وتكشِّرُ في كل من تسوِّلُ له نفسه نصب كماشة أو وضع فخ لاصق في طريقها، عقارب تلدغ الناس فتخوزقهم من قلوبهم، وتأرجح جثتهم على إبرها، وأفاعٍ عملاقة يكاد لا يصدق كيف أمكن خياله أن يحشرها في ذاك البيت الصغير -مقارنة بها- ويواصل ابن عمه سردَ أساطيره وخرافاته التي لن تخطُر على بال هوميروس ذاته، ويواصل أحمد تصديقها وفاهه مفغورٌ في انبهارٍ وهو يتساءل حائرًا: كيف استطاع ابن عمه أن ينجو بجلده -الأملس كالزبدة- سليمًا من جحيم الأهوال والكوابيس هذه؟ لا بُدَّ أنه محاربٌ من المغاوير.

(ش) مرر أحمد إصبعه على هاتفه الذكي لينزل صفحة أخرى في تلك المجموعة القصصية الجميلة التي يقرأها للطنطاوي "قصص من الحياة"، وأسرعت أعينه على طوابق الأحرف تشقها هبوطًا، فيما بقي فمه مغلقًا، ووجهه ساكنًا لا ينمُّ عن شيء إلا حين يمرُّ على استعارة بديعة أو تشبيه دقيق فيشرق وجهه ثم تعود صفحته إلى ركودها، وعلى السرير المقابل له قعد سليمان الذي لم يعُد يلقاه إلا مرتين أو ثلاثًا في العام، ممسكًا هاتفه يسجّل معايداته إلى أصدقائه ويرسلها لهم عبر الفيسبوك أو الإنستغرام بمناسبة عيد الأضحى، وهكذا مضت ربع ساعة لم يتحدث أحدهما إلى الآخر، ثم نصف ساعة والصمت ما زال لم يشُدَّ رحاله، ثم ساعة حتى أيقن السُّكون بالخلود، وتابعت قافلة اللحظات سَيْرَهَا تتهادى جمالها ببطءٍ ولكن بثقة، وألفى أحمد قلبه فريسة للذنب، يتتبعه بينما يزحف مشلول الساقين يسحب نفسه هلعًا مذعورًا على الأرض الوعرة بذراعين

مدميتين، ويهوي عليه بطعنات نجلاء بخنجر قطع الرحم المسموم الماضي، وصبَّ عليه الشوق والحنين إلى الأيام الخوالي برميلًا من البنزين ثم أضرمه، وفيما اكتوى بلظاه أرسل نظره مستجيرًا مستغيثًا بابن عمه، نظرات تقول بصمت: ((أرجوك يا ابن العم، يا رفيق الصبا، أتوسل إليك، التفت إلي هنا، انظر إلى وجهي، تحدث إلي، اقصص علي ما شئت من الأساطير والخرافات، ولسوف أصغي وأنظُمُ لك إن شئت إلياذة باسمك)).

ولكن سليمان لا يعطف عليه حتى ولو بلمحة خاطفة، بل يمضي في رسائله الصوتية يسجلها ويبعثها: ((عيدك مبروك وكل عام وأنت بخير أخي عبد الله... العقبى للعام القادم إن شاء الله يا صاحبي عبد الرحمن)).

كل ما ناله حين التقى به في المرة السابقة، هو محاضرة منه يهزأ فيها به وبقِيَمه، عاد صوته الساخر يزوره للمرة الألف: "أنلت معدلًا دون المتوسط؟ لماذا؟... لم تكن تعلم أن هناك امتحانات عبر الأنترنت تُجريها في الدار؟ يا لك من متخلِّف، ألم يخبِرك أحد؟ ألديك أصدقاء في صفك؟ ثلاثة فقط؟ أنا المعهد بأكمله يعرفني كلما مررتُ بجماعة قالوا: 'سلامًا سلامًا'، لا تتكلم مع الفتيات؟ أنت متعنتٌ متزمتٌ، أعرف أناسًا بخطيباتهم تفصلهم أيامٌ عن الزفاف يحادثون كل بنت تصادفهم بشكل عاديٍ طبيعيٍ، ما بالك متحفظٌ هكذا؟ أنت حقًا أبله، انظر إلى وقفتك المتراخية تلكٍ، انفش صدرك يا هذا، وأقم ظهرك المحني مثل العجائز، ما الذي أراه؟ أتلك حدبة؟ سنام جمل على قوام إنسان، قل لي لماذا يئست من دراستك ثانية؟ لأن المستوى متدنٍّ والدروس بسيطة، أنت حقا أحمق، سهولة الدروس نعمة فبها تستطيع التخرج في أسرع وقت وبأعلى دَرَجَ...".

فأرسل بصري إلى ذلك الرأس المنتفخ حذلقة لا حذاقة، ونظراتي لو قرأها تصرخ فيه: "أن اخرس بربك، أطبق فمك اللعين هذا فأنت لن تستوعب أبدا معنى أن تُسَبِّل نفسك وتسَخِّر وقتك خالصًا لطلب العلم، إشباعًا للفضول، وتوسيعًا للمدارك وزيادة في الاطلاع، وليس سعيًا وراء النقاط والدرجات العالية والتي ستضمن لك وظيفة مرموقة في شركة كبيرة، راتبها مجزٍ، وإجازاتها مديدة ووو". ولكن الابتسامة البلهاء التي أرفعها في أوجه الناس راية بيضاء مكتوب عليها: "أنا

مجرد فتى لطيف لا يرغب في أية مشاكل، اسخروا مني وتهكموا بي إن شئتم، فأنا لن أفعل لكم شيئًا لأني خائفٌ من المواجهة، تعوّدتُ على قبول المهانة والذل، حتى لم أعد أشعر بمرارتهما، اركلوني من فضلكم في وجهي، واسمحوا لي بلعق أحذيتكم، افعلوا ما شئتم ولكن أرجوكم لا تتعدوا أقصى الحدود، وتجبروني على مواجهتكم فأنا أكره نفسي حين أؤذي غيري، وأجعلهم ينفرون مني ويبتعدون عني كما فعل ذلك الصديق القصير".

آه، يا صديقي العزيز لماذا غادرتني وتركتني وحيدا علكة للوحشة تلوكني حتى تنزع كل شعور من قلبي كل يوم؟... يا صديقي الصغير كنت جناحاي اللتان أحلق بهما في سماء البهجة، أفردهما، ثم أقبضهما، وأرفرف بهما، حائمًا كالنسر، هاويًا كالعقاب، كنت أشعر وكأني قد بلغت العلياء وملكتُ الدنيا، واجتمعت كل ملذات العالم وتهاطلت علي تغسلني حبورًا، كيف أمكنكَ أن تهجرني وتصم أذنيك عن توسلاتي؟ هويتُ من علٍّ كإيكاروس حين ذاب شمعه، وغرقتُ في لُجَّةً من الكآبة، وارتطمتُ بقعر بغض الذات، وفقدتُ كل احترام أُكِنُّه لنفسي، كل هذا من أجل لكمة سددتها لك لأنك شتمت أمي، وماذا كنت تتوقع مني أن أفعل؟ أبسُم لك وأضحك، أو أتظاهر بالصمم، أو أزعم لأذني أنك قلت كما يقول صديقي الآخر الوفي متهكمًا: "نعتزُّ بأمك".

آه يا صديقي الصغير، لو تدرك أو تدري أني كنتُ أتصور موتي، أتخيل أني أهوي من مبنى عالٍ، وأشعر بالألم إذ يأتي ليشويَ عقلي قبل أن تنطفئ روحي وتذوي، حين يخطفها ملك الموت مني و...

آه، يا صديقي الصغير، أما في فؤادك ذرة رحمة؟ قلت لي في آخر لقاء أنك تتمنى موتي، طعنة انقضَّ بها لسانك الطويل كالحرباء ليخترق بها صدري، وينفذ بها إلى قلبي، ويشقُّه فينزف بكل ما فيه من حيوية الحياة، الآن، أنا جثة تمشي.

ولكني أكذب إن قلت أني ما زلت أتألم لفراقك، لقد نسيتك تماما، ولم يعد يراودني خيال وجهك، ولا عاد يناجيني صدى صوتك، ولكن أثرك كالوشم ما زال باقيًا في نفسي وشخصي، تراه في وجهي، عارًا على جبيني، خجلًا لعينًا في عيني، كمّامة بكم

على شفتاي، كل هذا وعلاوة عليه العجز عن الثقة، لم أعُد أثق بأحد لأني ذُقتُ مرارة الخيانة.

يا صديقي الصغير أنت من رسم على وجهي هذه الابتسامة البلهاء التي تقول لسليمان هذا إذ يعظني: "بارك الله فيك، يا لها من نصائح قيمة، أصبت ولم تخطئ في شيء كدأبك يا ذا الرأي السديد".

وتململ أحمد وعدّل من جلسته، ونظر إلى قصته مجددًا، ثم تأمل هاتفه وتمعن فيه، تلك الشاشة التي تريه العالم كله، الكرة السحرية في هاري بوتر قد استحالت حقيقة، الهاتف تلك الآلة البغيضة التي صُممت لتصل بيننا، فإذا بها تفعل العكس وتنقلب خنجرًا يُقطِّعُ الأواصر ويمزق الوشائج، فصرنا نتراسل مع أناس بعيدين عنا آلاف الأميال لا نحن نراهم ولا هم يروننا، ونتعامى عن الجالسين أمامنا، أهناك في الوجود مهزلة أكثر مدعاة للسخرية من هذه؟ وغزت صورته خياله وهو يقذف بالهاتف إلى الجدار لتتحطم شاشته إلى شظايا، ولكنه لم يجرؤ على فعلها، إذ تذكَّر إغراءاته، الروايات، والقصص المصورة، والأفلام والمسلسلات، وتعلم الإنجليزية والبرمجة، باقة من الفوائد تمرِّغُ بها هذه الشاشة أنفه، ليشمَّ من عبق زهورها، فاستلم لغوايته وعاد إلى تعاطيه، وبالوعة بغض الذات تنسكب على رأسه لتلوثه، كما تنصبُّ على أي مدمنٍ خائبٍ يفشل كلما حاول الإقلاع، واستمر هذا الشعور الكريه يعتصر قلبه حتى بلغ منه أن تصوّر أنه لو أمكنه أن يقتلع رأسه ويظل حيًّا، لاقتلعه ولروى وجهه بصاقًا، ولأشبعه بعدها صفعًا ولكمًا وركلًا، والتفت ينظر إلى ابن عمه فوجد مجسات الهاتف لا تزال محيطة برأسه ملتفة حول وجهه غارسة إبرها في عينيه تمتصُّ انتباههما وتشفط نورهما، فعاد هو الآخر لهاتفه وتركه يحتضنه بأذرعه الأخطبوطية.

(س) كنا نتسابق أنا وابن خالتي "ميكائيل"، رواحًا وغُدُوًّا إلى ومن المتوسطة، كان يقود درّاجة طويلة، وكنت أسوق تلك القصيرة، التي يدعونها بـ "دراجة الهيب هوب"، والتي تمتاز عن غيرها بالعجلات الثقيلة الأقرب إلى عجلات الدراجات النارية، والكؤوس التي توضع على جانبي العجلتين الأمامية والخلفية، ويمكن للمحترف أن يؤدي عليها دستة من الحركات البهلوانية، ولكن للأسف، وقعت

هذه الدراجة في يد هاوٍ مثلي لا يعرف حتى كيف يقودها على صراط مستقيم، حتى تخاله سِكّيرًا من شدة ترنحه بها -أو ترنحها به- على الطريق.

تلك الدراجة لم ألمح لها أختًا توأمًا في المدينة قبل أن يبتاعها لي أبي حين سافر إلى العاصمة، فبدا الأمر لي كما لو أني استحدثت شيئًا في المدينة، كما لو أني جلبتُ حيوانًا إلى بيئة جديدة عليه، لا هو استوطنها ولا هي أسكنت مثله قبلُ، كما لو أني أخذتُ اليغور إلى أستراليا، أو أطلقتُ الفنك في الأمازون، أو أحضرتُ الكنغر إلى الجزائر... مهلًا، دعوني أتتبع حبل الأفكار لبرهة...

أحضرتُ الكنغر إلى الجزائر، وأقمتُ له حلبة مصارعة، وهتفتُ معلنًا بلهجة أبي سفيان: "مئة مليون... لمن يصرع هذا الكنغر ويسقطه على قفاه".

ليتهافت على مسابقتي المشاركون، ويهجروا برنامج "من سيربح المليون؟" فالتلويح بالقبضات وكيل اللكمات أسهل بكثير من اعتصار الأدمغة علّها تدُرُّ عليهم بتلك المعلومة التافهة -والتي يعرف مقدم البرنامج أنك لن تعبأ بحشوها في رأسك- ، تعتصر رأسك لدقائق قبل أن تيأس منه، وتدرك أن حالك كمن يحلب تيسًا أو ثورًا. "أهذا ضرع أم...؟".
يندفع المشاركون إلى حلبتي متحمسين، ويخرجون متأوهين وهم يمشون كالكُسَّح، ليدخلوا حجراتهم بعد سنين في ليلة الدخلة، فتسألهم زوجاتهم وهن يحدقن إلى ما بين سيقانهم بارتياع وامتعاض: "ما الذي أصابك بحق اللعنة؟".

"صارعتُ كنغرا". هاهاها، هلم، اضحكوا معي لهذا الموقف الكوميدي السوداوي، ما زلتم تنظرون إلى الورقة بأعين تنطق وتقول: "ما المضحك في هذا تحديدا؟" ألا تفهمون النكتة، ألم تشاهدوا الكنغر يركل من قبل؟... هلم، افتحوا أفواهكم وقهقهوا أو سأحشوها بالمُدى والمطاوي...

"توقف عن تهديد القُرّاء يا سعيد، وركز، ركز، كنت للتو تتحدث عن دراجتك الهيب هوبيّة، فما الذي جرّك إلى ألبان التيوس وركلات الكناغر؟"

"آسف، آسف يا أستاذي، أين كنتُ؟"

"الجملة رقم (13): 'فبدا الأمر كما لو أني استحدثت...'"

كان منزل خالة ميكائيل على بُعد خطوات معدودة من المتوسطة، فكنّا نركن دراجاتنا في مرآبها، ونعود لأخذها بعد الدوام، وننتظر لحظةَ يدُقُّ الجرس على أحر من الـ... الجمر الذي لا يوفي شعورنا حقه فهو أقل حرارة مما ينبغي، الدليل أن الرهبان البوذ يخطون على بساطه، ولا تندُّ عنهم أنة ولا آهة ولا شهقة، لا، لقد كنا ننتظره على أحر من الشمس، والآن حين ينتصب عقرب الدقائق قائمًا مشيرًا برأس حربته لأعلى معلنًا التمام، أنشدوا عند رنينه:

"دقَّ الجرس... دق الجرس... اسم..."

توقف، توقف ولا تتعب نفسك، لا يوجد من ينصت لك أو يسمع الجرس، فنحن على عتبة دار خالته بالفعل، نلهث من شدة الركض، لقد جرينا مثل رجل دخل دغل الكوابيس فطاردته أسماك البيرانا على سيقان عنكبوتية، ولاحقته الأفاعي بأجنحة وطواطية، لقد ركضنا مثل زميلي حمودة حين خرج من باب المتوسطة مندفعًا ذات يوم وانطلق يهبط التلة -التي عليها متوسطتنا- بسرعة إطار عجلة حين ندفعه عبر الجبل فيتدحرج نازلًا، في حين كانت الفتيات يتهادين كالسلاحف متمهلات، فراح ينحرف وينعرج متجاوزًا تلك الحواجز البشرية حتى لا يصدمها، وارتطم بها...

فتاة لم يستطع تجاوزها فاصطدم بها وأسقطها وتدحرجا معا كإطاري عجلتين، قامت مذهولة تنفض الغبار عن عباءتها بوجه محمر باكٍ ثم تلبّسها عفريت الغضب فجأة فراحت ترجمه بأقذع السباب، ولكن زميلي كان قد أقلع مجددًا حالما تأكد أن الفتاة لم تكسر عظمة...

"سعيييد، قلت لك ركز، ركز، ما بالك مشتت هكذا؟ تدخل في جحر أرنب، وتخرج من وجار ضبع، هيا، ارجع إلى منزل خالة ميكائيل حيث ستجد دراجة أحمد مركونة تنتظره".

"العفو، العفو يا أستاذي، في أي جملة كنت؟"

"أووووف، كم أنت مزعج؟ بعد أن نفرغ من هذه 'السَّلكة'[7] ستدفع لي أتعابي هذه نقدًا أو عشاءً، أسمعت؟.... والآن، لنرَ أين كنت، أجل، (13): 'فنحن على عتبة دار خالته، نلهث من شدة الركض...'"

يدخل ابن خالتي، ويسلم على خالته، ويصافح يدها فلا تكاد أصابعهما تتلامسان لعجلته، ينطلق مباشرة إلى المرآب ويمسك بالدراجتين، واحدة بيمينه والأخرى بشماله، ويخرجهما، ثم نعتلي صهوتيهما ولكننا لا نذهب بهما إلى المنزل مباشرة، بل نرجع عبر الربوة الممهدة بالإسمنت حتى إذا بلغنا أعلاها قطعنا طريق السيارات المعبّد بالأسفلت، وهبطنا صواريخًا عبره مزاحمين المركبات بأشكالها، شاحنات، حافلات، سيارات، ودراجات نارية، لا، ليس مزاحمين بل وسابقينها مندفعين بلا مكابح ولا فرامل، بتهور وطيش يجعل الموت نفسه يفزع لنا ويصيح فينا: "مهلًا، مهلًا، أيها الأطفال المخابيل... ألا تخشونني؟ ألا تخافون نزلتي وبغتتي؟".

وما كان الموت بظننا سوى ذئبًا يتربص بالشيوخ الشائبين والعجائز الواهنات، ويترقب لحظة ضعف ينقض فيها على قلوبهم المتهالكة ويرديهم ويسحبهم إلى وكره... المقبرة، أما نحن الصبيان المراهقون الذين تتفجر في عروقهم دماء الفتوة وتبدو على أجسادهم بشائر الشباب، فلا قدرة له علينا ولا سلطان، فنحن نفتش عن المخاطر تفتيشًا ونمشط عنها تمشيطًا، ونضحك في وجوهها حيث ما لقيناها فتولي مرتعبة، كنا نحسب أنفسنا نخلُد ونعمِّرُ حتى نؤبِّد، هذا إن كان للفناء والخلود محطة في أذهاننا أصلًا فينزلا فيها فيخطرا لنا فنفكر فيهما.

كنا ننزل الطريق متحدين انحداره ومنعرجه، فيقف لنا عقبة مطبان يتوعداننا بارتجاجة تقذف بنا إلى الجانب، ولكننا لا نبالي بهما بل ندعس على وجهيهما، ونواصل هبوطنا الصاروخي وقد بلغنا من التمرد ذروته، يقطع ابن خالتي المطبين فأتبعه كالمأموم، وأعتلي المطب فيرفعني فأتصوره موجة بحر أركبها على لوحي بكل

---

[7] السَّلكة هي المرحلة الأخيرة التي يمر بها الخاتم لكتاب الله في نظام الاستظهار الميزابي، حيث يستظهر الحافظ القرآن كاملًا على أرباع أو أنصاف بين يدي أستاذه، فيما يُصحح له هذا الأخير أخطاءه ويُخبره بتكملة الآية إن هو توقف ولو لحظة فيها، ويحدث أن يضجر الأستاذ من تلميذه إن كان كثير اللغط والارتباك (مثلي) فيتذمر منه ويشتكي كما نرى هنا.

انسيابية ونعومة ويتمايل مع انحناءتها سائر جسمي، فتسيل خلال عروقي حلاوة دافقة كنت أحسها دائما كلما تخطيت بالدراجة مِطبًّا، أشعر كما لو أني دسست يدي وسددت بها الرمل في ساعة الزمن، ورُحت ألوك لحظة الأدرينالين الممتزج بالدوبامين تلك متمطقا متلذذا مديرًا حلاوتها خلال جميع أعضائي وأطرافي كما أدير العلكة في فمي، كأني تحولتُ إلى لسان بشري وظيفة كل خلية فيه أن ترتجف نشوة لمذاق تلك المتعة العارمة، ثم أسمح للزمن بأن يسحب عجلات دراجتي إلى المطب الآخر، وأجبره على الوقوف جانبًا وانتظاري ريثما أشرب كأسًا أخرى مترعة باللذة.

"كفاك مبالغة وإطنابًا يا سعيد، لا يُعقل أن ابنك أحمد ينال هذه المتعة العارمة فقط من مجرد اجتياز مطب بالدراجة، إنك بوصفك المبالغ هذا تجعل المستمع لك يخاله أمضى ليلةً يفترش الحسان يفترس أجسادهن، فلا شيء سوى هذا يبعث على هذه اللذة".

"ألا تخجل يا مُلهمي؟ ما لك تُملي علي بمثل هذه الألفاظ؟ أم أنك تريد أن تفضحني أمام قرائي؟ ثم أتحسب المشاعر إبلًا حتى تُعقل؟ المشاعر تسرح حرة طليقة خارج أسوار العقل وحصونه، ثم أتظن أحاسيسنا تتساوى ومشاعرنا تتماثل، أتخال أن آلامنا وأوجاعنا واحدة، لو كانت مشاعرنا كذلك لكنا جميعا نعشق ذات الأُكلة، ونحب نفس الفتاة، ونخشى عين الكابوس وهكذا دواليك...".

"لا توجد وسيلة لإثبات ما تقول".

"ولا وسيلة لنفيه أيضا فالله وحده أدرى بدواخلنا وسرائرنا وكل واحد منا لا يعرف سوى مشاعره وأفكاره الخاصة، وإن زعم وادعى أنه يشعر بالآخر فالواقع أنه يتصور ما كان ليشعر به هو لو كان يواجه الموقف ذاته".

"كفاك فلسفة وسفسطة، أوجعت رؤوسنا بهذا الكلام الفارغ، هيا، ارجع إلى القصة فقد ضجر قُرائنا -هذا إن بقي منهم أحد يقرأ-".

"لك أن تعتقد ما شئت، ولكني أقسم لك أني في طفولتي وحتى وداعي لمراهقتي، كنت أجد لذة عظيمة في فعل أشياء بسيطة، أحرك فكي السفلي على العلوي

فتتعانق ضروسي ولكن بشكل معاكس لعناق الجامعيات الجزائريات، أرأيت تلك البلهوات يتعانقن؟ لا؟ لا تقلق، فأنت بين يدي رسام عظيم للوحات الخيالية، ومخرج عبقري للسيناريوهات الوهمية، والآن افرش لي قماشًا أبيضًا في ذهنك، وسأصور لك عليه طريقة العناق السخيفة تلك...

تلمح الواحدة منهن صاحبتها وسط حشد الطلبة المتجمهرين خارج بوابة المعهد المغلقة، فتشهق كما لو أنها رأت يوسف عليه السلام أو المسيح أو المسيح الدجال، فتستدير الأخرى تجاهها وتتلاقى النظرات فتنبسط الأسارير، ويدنوان من بعضهما حتى يوشكا على الالتصاق، وهنا يبدأ ذلك السلوك الغريب الذي يحتاج إلى دراسة سيكولوجية عميقة وجادة الغرض منها هو... الإشكالية: ما الدواعي والدوافع التي تجعل فتاتين راشدتين تفقدان صوابهما في الآن ذاته وتتصرفان كالمخابيل فجأة؟

وصفٌ مُدققٌ للظاهرة: تحتضن كل منهما الأخرى وتضمها من ظهرها إليها ثم يتمايلان معًا ببطء في تناغم على إيقاع مهموس إن لم يكن مكتوما، لا يسمعه غيرهما (دليل قاطع على الهلوسة)، يتمايلان يمينًا ويسارًا كزوج من تنانين الكومودو تتعانق متصارعة، يستمران هكذا لهنيهة ثم تمضي نوبة الجنون فيعودان إلى سجيتهما وكأنما لم يرقصا كالمجانين في مستشفى للمجاذيب للتو.

هكذا أمرِّرُ السن على السن كما لو أني أشحذ السكين بالسكين، فترتاح نفسي وتبتهج روحي بشكل غير قابل للتفسير، وأشعر بهذا أيضًا حين ألاعب قطي، أو أدغدغ قدمي، أو أمصُّ إبهامي، أو أتنمر على نملة، وأُحِسُّ بأكثر من ذلك -سبع مئة سنبلة مثقلة بحبوب اللذة- حين أطوف الفناء، وخيالي ينسج لي أكوانًا وعوالمًا بأكملها فيها عشرات الأشخاص، أبطال صناديد عناترة يخوضون معاركًا ضارية وحروبًا طاحنة، أحاكي صوت انفجارها واندلاعها بفمي: "بوووم... بااام.... بوووف... بااااع".

وأصغي للمتبارزين في عقلي يتراشقان التهديدات: "سأقطع رأسك"، "سأقتلع عينيك"، "سآكل كبدك"، "سأشرب دمك"، ولكن كلمة لا تغادر شفتاي فأنا لستُ

ببغاءً أو واشيًا حتى أُفضي للناس في هذا العالم بأحاديث رعِيَّتي في العالم الآخر، كما أن شفتاي مشغولتان بشيء آخر...

"بوم... بام... باع... بووف"، وأطوف مرة أخرى.

"لا أحد يأبه لطفولتك الغريبة وتصرفاتك الجنونية يا سعيد... أخبرنا بتكملة القصة".

"لقد انتهت".

"انتهت؟! ماذا تقول؟! إذًا، لماذا أضعت وقت القراء الثمين في هذه السخافة؟"

"أقدم لكم اعتذاري الخالص قرائي الأعزاء، القصة انتهت بالفع... لا، مهلًا، قصة أحمد مع ميكائيل انتهت، سأختمها الآن، بقي لي أن أحكي لكم عن..."

(ش) والآن، وبعد كل تلك الجولات معًا بالدراجات، ذهابًا وإيابًا مثل الهوبيت، لم يعُد أحمد يتحادث وميكائيل إلا فيما ندُر.

جد أحمد لأمه يُدعى سليمان، يمكنكم أن تروا اسمه محفورًا بخطٍ عريضٍ على شاهد قبره، أجل، فقد مضى على وفاته خمس سنوات.

(س) كانت ليلة جمعة، ولكنه ما زال الخميس. لم يقنع الجمعة بنعاجه فسلب أمسه عنزته السوداء، ووسمها باسمه ومذ ذاك جرت العادة على تسميتها بليلته، خيالي واسعٌ حقا، أليس كذلك يا فارة؟... من فارة؟ شخص لا دور له في قصتنا هذه.

جلس أحمد بين أبناء أخواله وخالاته، إلى جوار ميكائيل، والمخاط يسيل من أنفيهما، وقد تجمدت بقعٌ منه على قميصيهما، فالقميص رداءٌ ومنديلٌ وخرقة أرض ولهما فيه مآرب أخرى، تطلّع أحمد إلى جده مبتهجًا، فيما نظر هو لأحفاده مبتسمًا، وهو يضرب أصابعه ببعضها ليقلِّدوه متّبعين إيقاع يديه، كما لو أنه قائد أوركسترا.

قل لي، أتسمع زخّات المطر؟ صوت رذاذه الخفيف الهامس، إنها ليلة مطيرة داخل الصالون، ولكن لا تخشَ شيئًا، إن هي إلا قطرات ستبُلُّ ملابسك ولن تغسلها، أترى الآن أصابعهم؟ أصابع سليمان وأحفاده؟ سبّابات أياديهم اليمنى ووُسطواتها تهويان في نقرات متتابعة متلاحقة على مثيلتيهما في أياديهم اليسرى، ها هو المطر يشتد ويتهاطل، حسنا، لقد غيرتُ رأيي، نصيحتي لك أن تفتح مظلتك الآن يا صاحبي وإلا ستحظى بحمَّام مجانيا، انظر إلى الأصابع مجددا، ها هي الخناصر تنضم إلى الفرقة، مهلًا، ماذا أرى؟ البناصر الخجولة تتحرك أيضًا، هذا ليس بفيضان يا صاحبي، بل هو الطوفان، ارمِ تلك المظلة ولتبحث عن جبل تأوي إليه، ولتأمل ألّا يكون الموج كالجبال طولًا، هيا، اركض بسرعة، انسَ بيتك وسيارتك وأنقذ حياتك، مهلًا، مهلًا، قلتُ تمهل أيها الأرنب المذعور، ألا تسمعني؟ انتظر، المطر يضعف تدريجيًا كما اشتد لوهلة، انظُر إلى الأيادي التي فتحت علينا أبواب السماء مجددا، ها هي الأصابع تكف عن التصفيق واحدة واحدة، ثم تتوقف نهائيًا، وينقطع هذا الوابل فجأة كما انفتح، وتذوي نار الحماس في أعين أولئك الصغار، ويقول لهم الحاج سليمان بابتسامة واسعة: "كفى مطرًا، واستمعوا لي... لدي نكتة مضحكة أحكيها لكم...

ذات يوم وظَّف مدير مطعم نادلًا شابًا، وأوصاه قبل أن يغادر: "نظف الطاولات جيدًا، ولا تتأخر على الزبائن، وإياك إياك أن تقبل بالديون، يُفترض بي ألّا أوصيك بهذا، ولكنك جديدٌ على هذه المهنة، وأخشى أن يستغفلك أحد". رد النادل الساذج : "لا تقلق سيدي، سأكون عند حسن الظن".

فغادر المدير ليدلف بعده مباشرة رجلان، رحب بهما النادل، وسألهما عن طلباتهما، فألقيا على رأسه بلائحة طويلة من الأطباق لذيذة الطعم غالية الثمن، فأسرع النادل يلبي، وقد أيقن بأن اليوم يوم سعده، وحين أفرغا مائدتهما وملآ بطنيهما، قاما ولكز الأول صاحبه وقال: "الحساب علي".

"كلا، أنا أشكر لك كرمك، ولكني أنا من سيدفع".

وتجادلا والنادل أمامهما لا يدري ما يفعل، وإذا بهما ينظران نحوه ويقول له أحدهما: "وجدت الحل لهذه المشكلة العويصة... أنت، ضع عصابة على عينيك، ونحن سنختبئ، والذي تقبض عليه منا سيدفع، أترضى بهذا الحل يا صديقي؟". "بالطبع".

"كوت ولّا مزال، حسنا، ها أنا قادم". راح النادل يجوب المحل حتى أمسك بأحدهم: "أها... أنت من سيدفع الفاتورة يا سيدي..."، وخلع العصابة وصاح: "المدير؟!!"، وتلفّتَ حوله فلم ير غيرهما... هاها، الغر الساذج، لقد احتالا عليه، تصوروا ما سيفعله به المدير".

الحاج سليمان، كيف يبدو؟ أتعرفون ماذا كانت مرآة البدائيين قبل صنع أول مرآة؟ لقد كانت حدقات الأعين...

والآن تأملوا معي في حدقات أحمد، إذ يتفحص إحدى صور جده الراحل المعدودة التي اقتسمها أبنائه ليتذكروه بها، يتأملها ممعنًا النظر فيها، انظروا إلى انعكاس سليمان على عينيه، شيخٌ له حيوية الشباب وطاقتهم المتفجرة، عيناه سوداوان هادئتان عامرتان بالرضا والطمأنينة، تتلاعب على خط فمه الرفيع ابتسامة حتى ولو لم يفترَّ ثغره عنها، رأسه يغطيه بقبعة مستديرة صوفية -تلك التي ندعوها "بوني"- بُنِية مرقطة بالأبيض، ولو خلعها لرأيت أن الزمن حلق له شعره بالكامل، وعوضه بدلًا عنه بصلعة الحكماء، تلك الصلعة التي تصدق حين توحي للناظر بأنه عرك الحياة خيرها وشرها، وذاق حلاوتها ومرارتها، فلُقِّنَ دروسها، واعتاد على تقلُّبها، فلم تعُد تفاجئه بشيء أو تصدمه، فرضي عنها -لا بها- وقنع بما كسبه منها، وزهد فيها، ورفع عينيه يتطلع إلى حياة أخرى...

حلق له الزمن شعر رأسه، وإن لم يستطع أن يأخذ منه ما أخذ موسى عليه السلام الأسِف من أخيه هارون عليه السلام... اللحية، كانت لحية الحاج سليمان قصيرة مشذبة وشاربه خفيفًا، ومع أن الزمان لم يسلبه منهما إلا أنه خضّبهما بلونه المفضل... الأشيب.

كان الحاج سليمان ينتعل أرخص الأحذية، ولم يكن يرتدي إلا ملابسًا عادية بسيطة لا تلفت الأنظار ولا تخطف الأبصار، وهذا تواضعًا منه لا فقرًا ولا تقشفًا، ولكنه على مظهره البسيط المتواضع لا يسير في الشارع إلا وهشَّ كل من يمر به له وبشَّ ووقف يطمئن عليه، فقد كانت له هالة من الطيبة تلُفُّه، وكاريزما كاسحة تحيطه من غير تكلُّف منه ولا تصنُّع، كان يتصرف بعفوية على طبيعته، ولا يسعى لإرضاء أحد، وكان الناس يسُرُّها ذلك منه، فلا بُدَّ أنه إذًا فُطِرَ على الخير.

ومما يُذكر له من مكارم أنه أول من أتى بالحِدادة إلى القرية، وافتتح أول محل لها، وألان الله له الحديد كما طوّعه من قبله لعبده داود عليه السلام، فذاع صيته وشاع ذكره، ولم يبخل على أحد بعلمه فأطلع تلامذته العاملين تحت إمرته على أسرارها، ليفتحوا محالهم الخاصة بدورهم، وتشيع الحرفة وتنتشر الصنعة، ومما يُذكر له أيضا مداومته على حضور مجالس القرآن، ولو سمع أن مجلسًا لتلاوة القرآن أُقيم في مدينة أخرى تمامًا، ودُعي لحضوره لَحمل عكازه وسعى إليه، أين أحمد وأحفاده الآخرون منه؟ بل وأين أبناؤه منه؟ وكان إلى هذا كله، يعمل في فلاحة أرض ورثها من أبيه، فكان يخصها من أيامه بالجمعة، فيمنح لها نهاره، يذهب إليها في الصباح الباكر رفقة أبنائه وأحفاده، فيملأ المسبح لأحفاده ليلهوا فيه ويلتهوا به، ثم يُشمِّر عن ساعديه ويحمل أدواته الجراحية: المعول، والقشّاشة، والمجرفة، ويوزع المهام على فريقه (الأبناء) قبل أن يشرع في عملية تجميل جنّته، فيروي عطشها ماءً، ويُشبع حقولها سمادًا، ويكشط الأوساخ عن ظهرها كشطًا، وينعش حقولها حرثًا، فتسري خلال جداولها الحياة مجددًا كما لو أنه أجرى لها حجامة، فيتألق البستان بهاءً ونضارةً، ويجلس هو وأبناؤه على حصيرٍ تحت سقيفة الكرم، وسط خرير المياه الرقراقة، وحفيف النخيل الهمّاسة، وزقزقة العصافير المهذارة، وصياح الديوك المزواجة، حتى لتخال الجنة تثني عليه وتطري ممتنة، وتنشد له، وتتغنّى باسمه في زهو وحبور.

اغرورقت عينا أحمد وهو يتأمل صورة جده إذ يقف جوار أبيه، وهو أمامهما طفل لما يبلغ السادسة بعدُ، ولكنه أطلق القنابل المجففة للدموع على حشود العبرات المتظاهرة فتشتتت ولاذت بملاجئها، كان أحمد يرى ذرف الدموع ضعفًا لا يليق

بالرجل الخشن الصلب. راح يسترجع الذكريات ويجترها علُّه يرضي حنينه الذي يفعل به ما لا يفعل الجوع بالمتضوِّرُ، فرأى نفسه...

رأى نفسه طفلًا صغيرًا ذهبي الشعر، ساذج الابتسامة، صافي العيون، بريء النظرات، يتواثب في مرحٍ ويهرول إلى جوار جده طويل الخطا وسريعها إلى الحانوت حتى إذا بلغه، أمطر البائع الحاج سليمان بالتحيات، وراح يسأل عن حاله وأخباره ثم جلب له طلباته، ونبهه إلى الدَّين الذي سجله أطفال العائلة باسمه فسدّده عن طيب خاطر، وقبل أن يغادر اشترى له قطعة شيكولاطة ونفش شعره وهو يقدّمها له، رأى أحمد نفسه يجرِّدُها من غلافها، والسرور بادٍ على وجهه وهو يهمهم بالشكر، ثم ينهم منها فيلطخ بلونها البني الداكن شدقيه وخديه وذقنه، حتى ليبدو كما لو كان يلعب بالوحل على ضفاف جداول البستان، أو يتناول "الطَّمينة" على شاطئ البحر، يلتقط لقمتها من على طبق الرمل، ويزدرد ذرات ترابها في سذاجة وهو مرتبكٌ من تغيُّر مذاقها عن المعتاد فيما تنفجر خالاته ضحكًا عليه.

ورأى نفسه مرة أخرى وجدُّه يرمق وجهه باسمًا، قبل أن يقول له عبارته التي اعتاد ممازحته بها: "أغلق فمك وإلا دخلته ذبابة". فيبتسم هو خجلًا، ويزمُّ شفتيه، وسرعان ما ينشغل عنهما فتنفرجان ببطء في غفلة منه، فتتردد العبارة على مسامعه ثانية: "أحمد، أغلق فمك وإلا...".

ودخلته الذبابة، لم يكن يصدق أن ذلك ممكن الحدوث، وقع ذلك فجرًا في المدرسة القرآنية حين كان يتجهز لحفلة آخر السنة بنشيد يقدمه مع بعض زملائه، وكان منغمسًا في الإنشاد يصدح به فاغرًا فاه عن آخره، حين اقتحمت فمه ذبابة، فأطبق فمه عليها مصدومًا، ولم يجرؤ على بصقها خارجًا حتى انتهى النشيد، وصرفهم الأستاذ، وذكر بعدها نصيحة جده فضحك حتى أوجعه بطنه.

(ش) ثم رأى نفسه وقد ازداد سنًا وأسنانًا، يردُّ على جده الذي طلب منه أن يأخذ رأس الكبش ذبيحة العيد إلى القصاب ليقطِّعها له: "لا أعرف أين يوجد القصاب". يقولها ويلتفت إلى التلفاز الضخم ذي الحدبة في غرفة الجلوس فيراه

مطفئًا، وجهاز التحكم على بعد أمتار منه، نافذةٌ يطلُّ منها على آلاف العوالم الكرتونية، كل منها له عجائبه التي لا تقلُّ عن سبعة، القتالات الحماسية في دراغون بول، العزيمة الحديدية في ناروتو، الفضائيون العشرة ذوي الهيئات الغريبة والقدرات المذهلة في بن تن، وغيرها الكثير من المسلسلات الساحرة التي خلبت لبُّه، ودفعته إلى الطواف في الفناء وهو يحاول أن يختلق من خياله مسلسلاته الخاصة.

ذلك التلفاز المغوي المغري راح يهمس له غامزًا " هيت لك... هيت لك" فأجاب دعوته في سره: "حالًا، حالًا".

وطفق يخرُط على جده، ويزعم أنه لا يعرف مكان الـ... تساءل جده مستغربًا: "كيف لا تعرف القصاب وأنت تذهب إليه مع أبيك كل عيد؟".

سألته أمه برفق: "ألا تذكره؟ إنه المتواجد أمام المكتبة الصغيرة في السوق".

وتجلَّى سراب محل القصاب أمام عينيه، وأدرك يقينًا أنه يعرف موقعه بالتحديد، ولكنه نُكس على رأسه وقال: "أيُّ جزار تحديدًا؟ أنا لا أذكر حقًا".

ولكن تمثيليته لم تنطلِ على جده كما يبدو فقد علا الشك عينيه لحظات، قبل أن يسدد له بهما كُرَاتًا من نارٍ، ويصرخ فيه وقد استحالت عيناه جمرتان: "أنت تعرف، أنت تعرف ولكنك تدعي الحمق والبلاهة، لأنك ترغب في مشاهدة التلفاز، هيا، اذهب، اذهب إلى تلفازك اللعين".

وهرب أحمد من مغضبة جده العاتية، وقد ارتعدت فرائصه، واحتقن وجهه بالعار والهلع والصدمة، وشغّل التلفاز وراح يحدِّقُ فيه وهو لا يعي مما يرى شيئًا.

التلفاز ألعن لص عرفه أحمد، لقد سلبه جدّيه، لربما يمكننا أن نلعب دور المحامي هنا ونلصق التهمة بأحمد، فنلومه على هجره دفئهما مقابل جهاز هامد بارد، ولكن ألسنا نقسو عليه في الحكم؟ فكيف لنا أن نتوقع من طفل لم يجاوز الرابعة عشر أن يقاوم فتنة التيليفزون وسحره؟

كلما زار أحمد جدته العزيزة عائشة حرمُ الحاج سليمان، اقتحم البيت مسرعًا، وصافح جديه مختطفا كفه من قبضتيهما ما إن يمسّها كما لو أنه أدخلها بين فكي تمساح يتثاءب، ثم يممّ وجهه شطر التلفاز ذلك الساحر الأحدب، وبحث عن العصا السحرية التي تبثُّ فيه الحياة، حتى إذا عثر عليها أحياه متلهفًا، وجلس أمامه في خشوع وسكينة، وهو يتابع الرؤى والأحلام التي يعرضها عليه.

حتى إذا حان وقت المغادرة ناداه أبوه فودّع جديه على عجلٍ وخرج، كان هذاال مشهد يتكرر كل زيارة، تُرى كيف كان شعور جدَّيه حين يتجاهلهما حفيدهما ويهجرهما ويستبدل بهما قطعة حديد صمَّاء ورسومًا متحركة ميتة، توحي وتوهم أعين الرائي بأن لها روحًا وحياة مثل عصي السّحارين وحبالهم؟ يا لها من خطيئة عظيمة تلك التي قارفها، ألهذا الشرك ذنب لا يُغتفر؟ تترك الإله الذي بثَّ الحياة في جسدك فنبض بها قلبك وتفجرت بها الدماء في عروقك، وتُنصِّبُ أنصابًا لنفسك بدلًا منه، أحجارًا صمّاءَ ميتة تعبدها، تتضرع لها وتبتهل، وتذبح الأضحيات وتقدم القرابين.

(ش) رأى أحمد نفسه يأكل العشاء الفاخر الذي أولم به أبوه ليلة الجمعة حين قدِم الحاج سليمان للمبيت عنهم، يلتهم فخذ الدجاج المشوي ذاك ويلعق المرق عن أنامله، فيما استغرقت أمه في الحديث مع أبويها بأدب كإبراهيم عليه السلام وبر كعيسى ويحي عليهما السلام، أما هو فلم يرفع نظره عن طعامه، ومضى في أكله غير آبه بكلامهم، حتى إذا فرغ الطبق، قام وهرع إلى حاسوبه المحمول، وأيقظه حتى يقرأ عليه كتاب سلسلة "سيد الخواتم" لتولكين، تلك الملحمة الفانتازية البديعة، التي كان يعتبرها الملحمة العظمى إلى أن وقعت يده على سلسلة "أغنية الجليد والنار"، فأطاحت هذه الملكة الشابة بالقديمة واحتلت عرشها، كما خشيت سرسي أن تفعل مارجري بها، لا تسألوني من سرسي ومن مارجري، اذهبوا واقرؤوا السلسلة.

تناديه أمه أن تعال واجلس معنا، فيرد أن قد شبعت، تقول تعال لتشرب الشاي، فيجيب بسأم أنا لا آكل الكعك، لا تأكله إذًا، تعال واجلس تسمع لنا ونسمع

عنك، كُفِّي عن إزعاجي يا أمي فأنا مشغول، أنا أقرأ. ويرحل الجدَّان صباحًا، وقد لبثا ليلة في البيت، لم يمكثا منها معه سوى لُحيظات.

لو لم يكن ذاك محالًا، لاستحضرنا مع مجيء الجدين للمبيت روح ليوناردو دافنشي ليرسم لنا لوحة "العشاء الأخير" الثانية، ولوضع بريشته -حين يصورها- لمسة خفيفة من الأبيض قُبالتي على المائدة، تمثِّل الملح المنسكب، أيمكنكم أن تعثروا على شبيهي في تلك اللوحة الشهيرة؟ ابحثوا عن مِرشٍّ الملح المسكوب وستجدونه.

رأى أحمد نفسه جالسًا يأكل العشاء، مع أبويه وإخوته، عشاء عُرض إليه الصمت ودُعي إليه الحزن، أخيرًا تكلم أبوه يحي بوجوم وهو يكتم أساه: "لقد زُرتُ الحاج سليمان اليوم في المشفى، إنه ليس على ما يرام، لقد فقد الكثير من الدماء، ولا علاج لدائه في بلدنا المتخلف هذا، يبدو أن تبرع أبنائه له بالدم لن ينفعه في شيء، حين كنت معه اليوم فغمت أنفي رائحته ورأيت وجهه... لقد كانت رائحة ووجه ميت".

قالت أمه ملتاعة: "يا رب، يا رب، أُلطف بأبي وارحمه".

"نحن ذاهبون لرؤيته الليلة؟ أتذهب معنا لزيارته؟".

"لا، لا أرغب بذلك".

"لقد زاره جميع أحفاده، ولم يبقَ سواك". قالت مُلِحَّة في الطلب فازداد إصراره على الرفض، فغادروا بدونه فيما استلقى هو وتدثر وتوسّد ونام ملء جفنه، و....

لماذا لم يذهب؟ أحيانا يأتيه السؤال فلا يحير له جوابًا، أحيانًا لا يفهم نفسه، ولا يُدرك دوافعها، يظل يبحث عن تفسير لأفعاله فلا يجد، لماذا لم يذهب؟ ألأنه خشي أن يرى جده الذي كان مفعمًا نشاطًا وحيوية طريح الفراش ضعيفًا واهنًا عاجزًا حتى عن القيام، وإن حدث وقام ومشى فقد يُغمى عليه، خشي وقع ذلك وأثره على نفسه، خشي أن يُثقل مرآى ذاك غمًا وهمًا فتفتك به الكآبة.

ألأنه شعر بخناجر الذنب تنهش ضميره، فهو لم يزُر جده -إلا لمامًا- حتى دنا أجله وقرُبت سكراته؟ أم أنه كان يظنُّ أن نوبة المرض هذه ستمضي كما مرّت سابقاتها الأخريات، ويستعيد جده بعدها قوته وصحته من جديد، باليسر الذي تستعيد به الأشجار كسوتها الخضراء بعد كل خريف.

أم ربما هو النعاس اللذيذ الذي راح يداعب أجفانه فاستسلم له، وكره أن يهدر ساعات النوم الهنيئة على زيارةٍ يمكن أن يؤجلها إلى الصباح حين يكون يقظًا ومتفرغًا لها فلا يخسر عليها شيئًا، ولكن الموت سبق.

أهو السبب الأخير؟ هل أنا أناني نرجسي متعلق بنفسي إلى هذه الدرجة؟ لا أستطيع أن أضحي بساعة نوم أودِّع فيها قريبًا أوشكت روحه أن تجتاز الحلقوم؟ يا إلهي، لكم أبغض نفسي الحقيرة.

(ش) قال له خاله عبد الله بلهجته الخشنة المعهودة: "احمل من تلك الجهة"، فأسرع يحمل النعش ملبيًا، شعر بعشر جواثيم تُقعي على صدره، وتطبق على رقبته، أهذا هو الواقع؟ أم أني في كابوس قاتم؟ حملوا النعش وتبعوا الحانوتي، وهو يمشي مغشيًا كما لو قُذِف به خارج جسده، وهو يطفو ويرقب جسمه الذي يسير كالزومبي يحمل النعش الخشبي الأخضر ليضعه حيثما أُمر.

"ضعوه هنا"، قال الحانوتي، فوضعوه على مصطبة ما في حجرة ما، تأمل أحمد الحانوتي، عينه التي اعتادت مرأى الجثث، يده التي واظبت على حمل الموتى، أظافره المدسوس فيها تراب القبور، هذا الرجل هنا يشترك العمل مع عزرائيل، الأول يخطف الأرواح، والثاني يُسلم الأجساد الأرض.

وغادر عبد الله بخطا سريعة، لينضم إلى إخوته وأبنائهم الذين تجمّعوا حول جثمان الحاج سليمان المُسَجّى، فيما مشى هو مصعوقًا من بغتة الموت الخاطفة كالبرق، قبل أمس فقط كان في البيت يتعشّى بينهم، أمس كان في المشفى، واليوم في البرزخ، أخيرًا حين وصل إلى حيث اجتمع أقرباؤه، ألفاهم يوشكون على الرحيل، بادره خاله عبد الله متعجلًا إياه: "أستدخل لتراه؟ كلنا رأيناه بالفعل".

كانت الحجرة التي احتوت جسده معتمة، ولكن شعاعًا خافتًا من الشمس تسلل إليها لينير وجه جده، وقعت عيناه على رأسه الأصلع مستلقيًا هناك، بدا جده كالراقد، ولكنها كانت النومة الأخيرة، ابتلع ريقه بصعوبة، وتجلّى مشهد مخيف لعينه الثالثة، عين الخيال، رأى نفسه وحده في الداخل قبالة جسد جده، ثم لوهلة ينتفض الجثمان ويقوم كما لو بُعِث ونُفِخت فيه الروح، يجيل النظر حوله ببطء حتى تتوقف عيناه عليه وتتسمّرا، يفتح فاه ويقول بحشرجة مرعبة: "لماذا؟ لماذا لم تزرني؟ لم لم تأتِ فأودِّعك قبل رحيلي؟ لماذا لم تقدم إلي فتطلب صفحي وأطلب عفوك؟ ألم تحبني؟ ألم تحبني يا أحمد؟".

يكرر سؤاله وهو يمدُّ نحوه يدًا ميتة همدت أصابعها وجفّت أمطارها، يرفعها إلى شعره، وينفش بها شعره بخشونة وينكشه ويتابع : "ألم أشتر لك قوالب الشيكولاطة؟".

يقول بأعين تذرف دمعًا من دم: "أجبني يا أحمد... افتح فاك وانطق، لا تخف فلن يدخله الذبا...".

عاد خاله يقول بنفاد صبر : "أستراه أم لا؟ هيا، لقد تأخر الوقت".

لم يرد، كان مرعوبًا من ذلك المشهد الذي تراءى له، ماذا لو تحققت رؤياه؟ بم كان ليجيب جده؟ كنتُ نعسانًا؟ أهذا هو عذره؟ يا له من عذر قاهر.

قال خاله العصبي وقد بلغ صبره حده : "هلم، لنذهب".

(ش) وحاول أن يكفر ذنبه، بحمل نعشه يوم الجنازة، فراح أحمد الفتى الذي لم يجاوز الخامسة عشر يزاحم أكتاف الرجال عليه، حتى رآه الشيخ وقال: "اترك هذا الآن لمن يقدر عليه، وارجع حين تكبر وتقوى".

أنت لا تفهم، أتظنني شغوفًا بحمل النعوش؟ أتظنني أستعرض عضلاتي ها هنا؟ أو أنك تحسبُني أحاول أن أبدو نافعًا مفيدًا؟ كلا، كلا، أنا أكفِّر، دعني أكفِّر عن خطاياي، وأطهر نفسي الآثمة من أوزارها.

(ش) ويوم العزاء، حين أُقيم المأتم، شهد أحمد إلياس أصلب أخواله وأخشنهم ينوح بصوت يمزق نياط القلب، والدموع تنهمر من عينيه مهراقة، وبلغه أنَّ بعض خالاته فقدن الوعي حين سمعن بخبر الوفاة، حتى ابن خالته محمد الذي كان يتنمر عليه -لدرجة جعلته يوقن أن لا ذرة شفقة في قلبه ولا رحمة- كان يبكي بصوت مكتوم، ويستُر وجهه بكفِّه ويكفكف دموعه، أما هو ففتّش في عقله عن الذكريات الحلوة له مع جده، فيرثيها ويبكيَ فَقْدَها فلم يجد، وطفق يكافح ليستحلب دموع التماسيح فلم تُنعم عليه عيناه -التَّيستان- بشيء، في تلك اللحظة أيقن من أن قلبه تحجر ثم تجمد، حتى قضم رأسي الحزن والحب فيه الصقيعُ ومزّقهما، فلم يُبقِ إلا حقدًا لأعدائه وخصومه، وهوسًا بهواياته واهتماماته التي تشبع لذّاته من رسم ونحت وسباحة. وأبغض أحمد نفسه الأنانية الكئيبة الانطوائية أكثر من أي وقت مضى.

وعاهد نفسه بعدها ليتلُوَنَّ وِرْدًا من القرآن وينوي ثوابه لجده، ويصلي النافلة ويحتسب أجرها لجده، ويتصدَّق ويقوم الليالي ويدعو لجده، فلم يوفِ مما وعد سوى بالدعاء، كان يدعو له بالرحمة والمغفرة والجنة دُبُرَ كل صلاة، ولكنه لم يواظب على ذلك سوى أسبوعين أو ثلاثة.

دعاه أبوه لزيارة قبره معه فقبِل بسرور في الأولى، ثم تضايق شيئًا في الثانية، ثم تبرم في الثالثة، وفي الرابعة لم يذهب، اعتذر لأبيه، فراح الأخير ساخطًا عليه لوحده. قلبٌ من حجر، قلبٌ من صخر، قلبٌ أقسى من حجر، قلب ميتٌ أكثر من جيفة.

والآن يقف أحمد إذ يتذكر كل هذا، في المقبرة أمام ذلك الشاهد، يرمق الحروف عليه، ينظر إلى التراب والحصى الذي وارى جثمانه، لا بُدَّ أنه قد أضحى عظمًا إن لم يكن رفاتًا الآن، يبكي شاهده ويسقيه دموعًا وعبرات، ويتوّسل الصفح والمغفرة، يستجديها من حجر أصم لا آذان له يسمع بها تضرُّعه، ولا شفاه يعلن بها مسامحته، ولا كفَّ يصافح بها صافحًا، أدرك أحمد فجأة أن عبارة: "ولات حين مناص" تنطبق عليه تمامًا، فتعالى نشيجه حتى تحول إلى نواح، وهو يتساءل في سره: "أيغفر لي ربي خطيئتي أم أنها أعظم من أن تُغتفر؟".

وأدرك فجأة أن عليه أن يغتنم بينما الآخرون لا زالوا أحياءً ويطلب صفحهم، ويُعيد الأمور إلى نصابها، ولكن القول أسهل من الفعل، أسوارٌ وحصونٌ وحواجزٌ وسدودٌ تحول بينه وبين فتح فمه للتحدث معهم، صحارٍ وغابات وبحار ومحيطات، أيمكنه حقّا أن يشُقَّ كل هذا ويرأب الصدع في الجدار المتهدم، ويُوثِقَ أواصر القرابة من جديد؟ لقد حاول فعلها مرارًا، بادر ذات مناسبة بفتح حوار مع محمد، ويا للكلمات التي خرجت من فمه، خرجت جهيضة كالأرحام الغائضة، كان الحوار أكثر جفافًا من صحراء "سيناء"، ولم يبدُ على ابن خالته رغبة في المواصلة فيه.

حاول مع خاله عبد الله، وتكلما ذات مرة عن رئيس أمريكا المختل عقليا وتوأمه غير الشقيق رئيس كوريا الجنوبية، لو كان لأحمد أن يمسح على المصباح ويطلب أمنية لتمنى أن يُحتجزا معًا في الزنزانة ذاتها في مصحة للأمراض العقلية، يمكنهما حينها أن ينقضّا على أعناق بعضهما كالكلاب المسعورة لو شاءَا بسلام، من غير أن يضعا حيوات الملايين من البشر في العالم على المحك، كان الحديث مسليًا قليلًا ولكن مقتضبٌ قدر ما استغرقت توصيلته بالشاحنة، وسرعان ما بلغ منزله، وعادَا كلما التقا إلى صمتهما المعهود، كما لو أن حديثهما تلك المرة كان معجزة لا تتكرر.

خطر له أن يرسم لهم لوحة فالريشة بيده كالعصا بيد موسى عليه السلام، تنبجس منه اثنتا عشر عينا لتنبثق منها شتى ألوان المشاعر وتمتزج على القماش الأبيض.

ولكنه لم يجرؤ على فعلها، سينعتونه بالجبان، وهو يعرف في قرارته أنه كذلك، لا يستطيع أن يواجه الناس ويصارحهم بشعوره الحقيقي تجاههم، ماذا يكون هذا غير جبان رعديد؟ ليت له حيلة " كف الصفح" التي تنثني كل لحظة، التي كان يستعملها في صغره.

ليت الأرضة تأتي على صحيفة القطيعة هذه وتأكلها حتى "لا ت..." وتترك "...سامحوا قاطع الرحم ذاك".

عاد يتأمل الشاهد من جديد: هل سيتذكرني الناس مثلك يا جدي؟ هل سيُتبع اسمي بالمديح والإطراء أم ستسبقه اللعنات والشتائم أينما ووقتما ذُكر؟ هل سيذكرني وهل سيبكيني الناس كما ذرفوا عليك الدمع يا جدي ولِكم من الوقت تحديدًا؟ لحظة؟ لحظتان؟ ماذا قدَّمتُ وأسهمتُ في أسرتي في عائلتي وفي مجتمعي حتى أستحق أن يُخلّد اسمي ويحمَّدَ مثلما جازوك يا جدي؟ أم أني أنتظر أن تشتهر لوحاتي فيتصارع على تحليل عمقها النقاد كما تتصارع الضباع وبنات آوى والنسور الصلعاء على الجِيفة، ويغالوا في التنقيب عن كنوز الرموز المخبئة فيها وإيجادها رغم أني لم أواري منها فيها شيئًا، أنتظر أن تذيع لوحاتي وتُعلقَّ في "اللوفر" ويُسَجَّل اسمي في التاريخ إلى جوار لائحة طويلة من الفنانين منهم: ليوناردو دافينشي ومايكل آنجلو وغيرهم الكثير، حينها سيُخلّد اسمي، ولكن هل سيكون لذلك قيمة حقًا؟

أجبني: ماذا قدّمت لوحة الموناليزا للبشرية؟ هل أدخلت من السرور في نفس أحد مقدار خردل مما غمر به جدي صدورنا بنكاته وألعابه حين كنا أطفالًا؟

"أحمد... أحمد... استيقظ، نحن ذاهبون"، هزه أبوه ففتح عينيه بصعوبة وفركهما، وقام متثائبًا، أكان نائمًا؟ التفت حوله فرأى الصالون قد فرُغ، ولم يبقَ فيه غير خاليه التوأمين إسرافيل وجبريل، ألحَّ عليه أبوه: "هيا، قم، سيوصلنا خالك عبد الله بشاحنته".

فقام متثائبًا وومضات من حلمه تبرق في عقله وتنطفئ، أكان كل ذلك حلمًا؟

لا، لا يمكن، لقد كان مزيجًا غريبًا من الأحلام والكوابيس وأحلام اليقظة والخواطر والذكريات، كل هذا اختلط عليه فلم يعرف ما رآه منه في اليقظة وما تبدّى له في المنام، راح يجري خلف الرؤى محاولًا اعتقالها وزجّها في الذاكرة حيث السجن المؤبد، ولكنها تملّصت من بين يديه تملُّص الأنفاس من حنجرة المحتضر، وراحت تنمحي وتتلاشى حتى لم يبقَ منها سوى آثار باهتة.

فيئس منها يأس البدوي الظمآن من السراب في الصحراء، وودع خاليه على عجل وخرج.

ملاحظة: لا تقرأ سلسلة "أغنية الجليد والنار" الفانتازية الملحمية التي ترجمها هشام فهمي، أو اقرأها بحذر، فكاتبها جورج رر مارتن ملحد وهو رغم رصانة أسلوبه وبراعته في الوصف وتقديم شخصيات يتعاطف معها القارئ إلا أن له عادة سيئة وهي كثرة المشاهد الفاضحة الفاحشة في رواياته، فإن قرأتها فعليك أن تتخطى الكثير من الفقرات، وإلا فدعها خيرٌ لك.

خاتمة

وأدرك سعيد الصباح فسكت عن الكلام المباح...
والآن أتسمحون لي أيها الشَّهريارات بالحياة إلى الليلة القادمة فأقُصَّ عليكم باقي الأحلام والكوابيس، ألها بقية؟ طبعا! فهذه المجموعة القصصية كعملة النقد لها وجهان، وجه رائع ووجه آخر أروع منه، فأبقوا علي حتى الليلة القادمة أحكي...
ماذا؟ تريدون أن أكُفَّ عن الحكي؟ أأجمعتم كلكم على إعدامي؟!
- كلا، فقط أطبق فمك واحتفظ بهذا الهراء لنفسك.
ما الذي تقولونه؟ أتحسبون القرار يرجع لكم، أنا لستُ شهرزاد هنا وأنتم لستم شهريارات، كنت أجاملكم فقط، أنا الديك... أنا الشمس... أنا البدر... أنا السيل... أنا الشتاء... أنا قوة طبيعية لا يمكن صدُّها ولا ردُّها، ستظلون تستمعون لصياحي كلما بزغ العام، ستظلون تشعرون بأشعتي اللافحة كل سنة، ستظلون تتأملون جمال اللغة منعكسة على الورق كالقمر على الماء كلما اكتملت إحدى رواياتي، وسأظل أجرفكم وأغرقكم بكلماتي كلما فاضت السدود بحبري، سأظل أجمدكم خوفا وأجعلكم ترتعدون كلما حلّت رواياتي المرعبة جالبة معها أهوالا تفوق ما يجلبه الشتاء في ويستروس، الموتى السائرون قطط سيامو ناعمة حين تقف جوار ما أكتبه، والآن سآذن لكم بالمغادرة والاحتفاظ برؤوسكم على أكتافكم على أن تعودوا الليلة القادمة، ومن لم يرجع منكم فدمه مهدور، الآن، هذا المقطع موجه إلى قدواتي :

د.أحمد خالد توفيق، د. تامر إبراهيم، شيرين هنائي، ستيفن كينج، جورج ر. ر مارتن، ج. ك رولينغ، تولكين، نيل غايمان وغيرهم...

أنا قادم، على سفح الجبل لا زلتُ، ولكني أتسلق مرتقيا رويدا رويدا، ويوما ما ستستيقظون أيها الملوك الجبابرة، يا من تحسبون أنفسكم أسياد الرواية وأربابها، ستستيقظون متثائبين وتُطلُّون من على قمة جبل الأوليمب ليقابلكم وجهي، وجه العملاق الذي أتى يطيح بكم ويقذف بعروشكم، ويدعس على أكتافكم ليصعد إلى السَّحاب، فيقيم كرسيه هناك، فهو لن يقنع بتلك القمة، ستتلعثمون

وأنتم تتساءلون كيف وصل هذا الوحش إلينا، ولسوف أفتح فمي وأصرخ : ((أخيرا، أخيرا بَلَغْتُكم، مرحبا، أنا فرانكنشتاين صنيعتكم)).

ملاحظة : ليس صنيعتهم بالمعنى الحقيقي، بل بالمجاز، فلولا كتاباتهم - بعد توفيق الله تعالى وإنعامه علي بالموهبة طبعا - لما اكتسبتُ أسلوبي هذا، فكلماتهم صنعتني، وأنا في الحقيقة خلطتهم، وطبختهم، أخذت من بعضهم دقة الوصف وقوته، ومن بعضهم جمال اللغة وسحرها، ومن بعضهم الآخر ابتكار الأساليب الكتابية والإبداع فيها، ومن بعضهم جو السخرية والتهكم والكوميديا السوداء الذي أُضفيه على رواياتي، كل هذه المكونات ممتزجة، أضف إليها خيالا واسعا خصيبا ، وستحصل علي.

لماذا أتحدَّاهم؟ لماذا أرفع قبضتي في وجوه آبائي الروحيين؟ لأني أبحث عن المنافسة، الراب مثلا صنف موسيقي يعتمد على المنافسة شديدة العنف بين المغنين، كل منهم يحاول إثبات أنه الأعظم والأبرع في الإلقاء وإنشاء القوافي والتوريات العبقرية، والأخطر في الهجاء، أريد أن أُحيل مجال الرواية إلى مثل ذلك، حلبة ملاكمة يتصارع عليها الكُتّاب الكبار على لقب أعظم روائي، من سيفوز ويستحق اللقب بجدارة؟ لا، ليس مجرد حلبة، بل ساحة حرب يتبادل عليها الروائيون الطِّعان بأسنَّة الأقلام على صهوات الأوراق، أو كوليزيوم روماني يتقاتلون وسط ساحته تحت أنظار الملأ بكل ما في جعبتهم من وحشية وشراسة وقوة، فحياتهم على المحك، وعليهم أن يفدُوها بحياة خصمهم.

لذا إلى الذين سبق ذكرهم وإلى كل روائي آخر، شهير أو صاعد، الحرب سجال، إما أنتم وإما أنا، هيا، أخرجوا لي شجعانكم أبارزهمْ على الورق، ولنر من منا سيغلب الآخر في جودة الكتابة، في الأسلوب واللغة والمضمون، ولكن احذروا فلدي حليف خطير، "نذير" هذا القرد الأشوس، يجلس على كتفي ويهمس لي بأكثر الأسطر صدما وإرعابا.

فإلى الليلة القادمة إذن، مع سبع توائم ملائكية أخرى، بعضها جبرائيلية وبعضها الآخر... عزرائيلية!

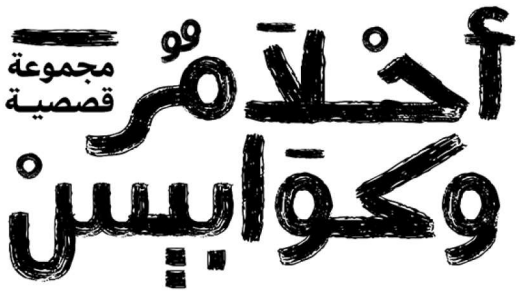

الفهرس

مقدمة 03
أحيانًا أرغب في 07
أنا مسلم 13
عصر التشتت 26
ذات يوم 36
قاطع رحم (الصغرى) 42
مطعم 50
قاطع رحم (الكبرى) 62
خاتمة 93

صالح والحاج سعيد

أحلام وكوابيس

مجموعة قصصية

إنها سبع قصص، بعضها اجتماعي، وهي أولى تجاربي في هذا الصنف، وبعضها كوميدي، صحيح أني حين ألقي نكتة لا أنجح أبدا في إضحاك المستمعين ولا أنال سوى الضحكات المصطنعة، ولكني حين أكتب نكتة، حينها سأجعلك يا قارئي تموت ضحكا، وخير لك أن تموت ضحكا وإلا قتلتُك باكيا جروحك التي تذرف الدم، وبعضها مرعب، وحين أقول مرعب فأنا أقصد صادم، وحين أقول صادم فأنا أقصد قطارا سريعا يدهمك فيسحق كل عظمة في جسدك بينما أنت تقطع السكة، سأصدمك بتلك الدرجة أو أكثر بقليل، وبعضها مستفز أيضا، مستفز بحيث يثير غيرتك أو حماستك ولربما لعنتني أول الأمر وظننت أني أتجاوز حدودي ولكنك حين تتفكر وتتدبر في الأمر ستشكرني.

شيء أخير، هذه القصص للشباب والبالغين فإن كنت طفلا أو مراهقا وسرقته من أخيك الأكبر قُمْ من كرسيك، قلتُ لك انهض، أنا أراك، والآن امش أمامي إلى غرفة أبيك وأنت تحمل الكتاب، لماذا تلتفت للوراء؟ إياك أن تفكر في الفرار، سألحق بك في كوابيسك وأجثم على صدرك وأخنق أنفاسك، أنت أمام الباب؟ جيد، لا تفتح، اطرق أولا، خرج أبوك؟ سلِّم له القنبلة - أقصد الكتاب - هل فعلت؟ أحسنت، عليك أن تشكرني الآن لأني أنقذت براءتك للتو وسمحت لك أن تستمتع بما تبقى من طفولتك، والآن اذهب وافتح حاسوبك، افتح جوجل واكتب : "سلسلة ما وراء الطبيعة - أسطورة مصاص الدماء والمذؤوب"، وحين تكبر عُد إلي لأدفنك... بكومة من رواياتي لتقرأها.

تصميم الغلاف: ساخر أحمد
Designed by Ahmed sakher